

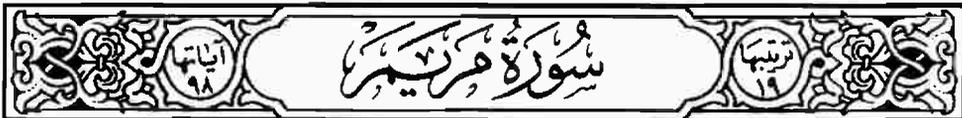
[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا الليث عن يزيد يعني ابن الهاد عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال «الرياء ، يقول الله يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم ترءون في الدنيا ، فانظروا هل تجلبون عندهم جزاء» .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، أخبرنا عبد الحميد يعني ابن جعفر ، أخبرني أبي زياد بن ميناء عن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري ، وكان من الصحابة ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً يقول ﷺ «فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك» وأخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث محمد وهو البرساني به .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا بكار ، حدثني أبي - يعني عبد العزيز بن أبي بكرة - عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من سمع سمع الله به ، ومن رأى رأى الله به» وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية ، حدثنا شيبان عن فراس عن عطية عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال «من يراني يراني الله به ، ومن يسمع يسمع الله به» .

[حديث آخر] قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة ، حدثني عمرو بن مرة قال : سمعت رجلاً في بيت أبي عبيدة أنه سمع عبد الله بن عمرو يحدث ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «من سمع الناس بعمله سمع الله به ، ساء خلقه وصغره وحقره» فدرت علينا عبدالله : وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا عمرو بن يحيى الأيلي ، حدثنا الحارث بن غسان ، حدثنا أبو عمران الجوني عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «تعرض أعمال بني آدم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة في صحف محتمة ، فيقول الله : ألقوا هذا واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : يا رب والله ما رأينا منه إلا خيراً ، فيقول : إن عمله كان لغير وجهي ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهي» ثم قال : الحارث بن غسان روى عنه جماعة وهو ثقة بصري ، ليس به بأس . وقال وهب : حدثني يزيد بن عياض عن عبد الرحمن الأعرج ، عن عبدالله بن قيس الخزازي أن رسول الله ﷺ قال «من قام رياء وسمعة ، لم يزل في مقت الله حتى يجلس» . وقال أبو يعلى : حدثنا محمد بن أبي بكر ، حدثنا محمد بن دينار عن إبراهيم الهجري ، عن أبي الأحوص عن عوف بن مالك عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو ، فذلك استهانة استهان بهاربه عز وجل» وقال ابن جرير : حدثنا أبو عامر إسحاق بن عمرو السكوني ، حدثنا هشام ابن عمار ، حدثنا ابن عياض ، حدثنا عمرو بن قيس الكندي أنه سمع معاوية بن أبي سفيان تلا هذه الآية «فمن كان يرجو لقاء ربه» الآية ، وقال : إنها آخر آية نزلت من القرآن وهذا أثر مشكل ، فإن هذه الآية آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها ، بل هي مثبتة بحكمة فاشتبته ، ذلك على بعض الرواة فروى بالمعنى على ما فهمه ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيان ، حدثنا النضر بن شميل ، حدثنا أبو قرة عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ «من قرأ في ليلة «فمن كان يرجو لقاء ربه» الآية ، كان له من النور من عدن أبين إلى مكة حشو ذلك النور الملائكة» غريب جداً .



وقد روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله ﴿ذكر رحمت ربك﴾ أي هذا ذكر رحمة الله بعبد زكريا ، وقرا يحيى بن يعمر ﴿ذكر رحمت ربك عبده زكريا﴾ وزكريا بمد ويقصر ، قراءتان مشهورتان وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل ، وفي صحيح البخاري أنه كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة . وقوله ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ قال بعض المفسرين : إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره ، حكاه الماوردي وقال آخرون : إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله ؛ كما قال قتادة في هذه الآية ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ إن الله يعلم القلب النقي ، ويسمع الصوت الخفي ، وقال بعض السلف : قام من الليل عليه السلام وقد نام أصحابه ، فجعل يبتف بربه يقول خفية : يا رب يا رب يا رب ، فقال الله له : لبيك لبيك لبيك ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾ أي ضعفت وخارت القوى واشتعل الرأس شيباً ، أي اضطرم المشيب في السواد ، كما قال ابن دريد في مقصورته :

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجا

واشتعل المبيض في مسودة مثل اشتعال النار في جمر الغضا

والمراد من هذا الأخبار عن الضعف والكبر ودلالته الظاهرة والباطنة . وقوله ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي ولم أعهد منك إلا الاجابة في الدعاء ، ولم تردني قط فيها سألتك وقوله ﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾ قرأ الاكثرون بنصب الياء من الموالى على أنه مفعول ، وعن الكسائي أنه سكن الياء ، كما قال الشاعر :

كان أيديهم في القاع القرق أيدي جوار بتعاطين السورق

وقال الآخر :

فتى لو يباري الشمس ألقنت قناعها أو القمر الساري لألقى المقالدا

ومنه قول أبي تمام حبيب بن أوس الطائي :

تغايير الشعر منه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتتل

وقال مجاهد وقتادة والسدي : أراد بالموالي العصابة : وقال أبو صالح : الكلاله . وروي عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه كان يقرؤها ﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾ بتشديد الفاء بمعنى قلت عصباتي من بعدي ، وعلى القراءة الأولى وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً ، فسأل الله ولداً يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه ، فأجيب في ذلك لا أنه خشي من وراثتهم له ماله ، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده ، وأن يأنف من وراثته عصبته له ويسأل أن يكون له ولد ليجوز ميراثه دونهم هذا وجه . [الثاني] أنه لم يذكر أنه كان ذا مال بل كان نجاراً يأكل من كسب يديه ، ومثل هذا لا يجمع مالا ولا سيباً الأنبياء ، فإنهم كانوا أزهدي شيء في الدنيا .

[الثالث] أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : «لا نورث ، ما تركنا صدقة» وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح «نحن معشر الأنبياء لا نورث» ، وعلى هذا فتعين حمل قوله ﴿فهب لي من لدنك ولياً يرثني﴾ على ميراث النبوة ، ولهذا قال «ويرث من آل يعقوب» كقوله «وورث سليمان داود» أي في النبوة إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك ، ولما كان في الإخبار بذلك كبيرة فائدة ، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والمثل أن الولد يرث أباه ، فلولا أنها وراثه خاصة لما أخبر بها ، وكل هذا بقره ويشبهه ما صح في الحديث ونحن معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة .

قال مجاهد في قوله ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ كان وراثته علماً ، وكان زكريا من ذرية يعقوب . وقال هشيم : أخبرنا إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح في قوله ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ قال : يكون نبياً كما كانت آباؤه أنبياء ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، عن الحسن يرث نبوته وعلمه ، وقال السدي : يرث نبوتي ونبوة آل يعقوب . وعن مالك عن زيد بن أسلم ﴿ويرث من آل يعقوب﴾ قال نبوتهم . وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون كلاهما عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن أبي صالح في قوله ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ قال : يرث مالي ويرث من آل يعقوب النبوة ، وهذا اختيار ابن جرير في تفسيره .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة أن النبي ﷺ قال «يرحم الله زكريا وما كان علياً من وراثته ماله ، ويرحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد» . وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا جابر بن نوح عن مبارك هو ابن فضالة ، عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ «رحم الله أخي زكريا ما كان عليه من وراثته ماله حين قال : هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب» وهذه مراسلات لا تعارض الصحاح ، والله أعلم . وقوله ﴿واجعله رب رضيعاً﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك ، تحبه وتحبه إلى خلقك في دينه وخلقه .

يَنْزِكْرِيًّا إِنَّا نَبْشُرُكَ بِعَلْمٍ أَسْمُهُ يَجِيءُ لَمْ يَجْعَلْ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفاً وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه ، فقيل له : ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى﴾ كما قال تعالى : ﴿هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء﴾ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسبوا ونبياً من الصالحين ﴿وقوله ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ قال قتادة وابن جريج وابن زيد : أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم ، واختاره ابن جرير رحمه الله . قال مجاهد ﴿لم نجعل له من قبل سمياً﴾ أي شبيهاً ، أخذه من معنى قوله ﴿فابعده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً﴾ أي شبيهاً ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أي لم تلد العواقر قبله مثله ، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له ، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها ، بخلاف إبراهيم ، وسارة عليها السلام ، فإنها إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لالعقرهما ، ولهذا قال ﴿أبشركموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾ مع أنه كان قد ولد له قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة ، وقالت امرأته ﴿يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾ قالوا أتعجبين من أمر الله رحمه الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُوْتُ لِي عُلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ

رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْتُنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ، ففرح فرحاً شديداً ، وسأل عن كيفية ما يولد له والوجه الذي يأتيه منه الولد ، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها ، ومع أنه قد كبر وعتا ، أي : عسا عظمه ونحل ، ولم يبق فيه لقاح ولا جماع ، والعرب تقول للعود إذا يبس : عتا يتعو عتياً وعتواً ، وعسا يعسو عسواً وعسبياً ، وقال مجاهد : عتياً يعني نحول العظم ، وقال ابن عباس وغيره : عتياً ، يعني الكبر ، والظاهر أنه أخص من الكبر .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا هشيم ، أخبرنا حصين عن عكرمة عن ابن عباس قال : لقد علمت السنة كلها غير أني لا أدري أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر أم لا ، ولا أدري كيف يقرأ هذا الحرف ﴿وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ أو عسبياً ؛ ورواه الإمام أحمد عن شريح بن النعمان وأبو داود عن زياد بن أيوب كلاهما عن هشيم به ، ﴿قال﴾ أي الملك جيباً لزكريا عما استعجب منه ﴿كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ، ﴿هين﴾ أي يسر سهل على الله ، ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه ، فقال ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ كما قال تعالى : ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾ .

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ إِلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١١﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٢﴾

يقول تعالى غيراً عن زكريا عليه السلام أنه ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني ، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني ، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رب أرني كيف نحى الموق قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ ﴿ قال آيتك ﴾ أي علامتك ﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويًا ﴾ أي أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوي من غير مرض ولا علة ، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ووهب والسدي وقتادة وغير واحد : اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة . قال زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة .

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ ثلاث ليال سويًا ﴾ أي متتابعات ، والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح ، كما قال تعالى في آل عمران ﴿ قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار ﴾ وقال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ ثلاث ليال سويًا ﴾ من غير خرس ، وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها ﴿ إلا رمزا ﴾ أي إشارة ، ولهذا قال في هذه الآية الكريمة ﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي أشار إشارة خفية سريعة ﴿ أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ أي موافقة له فيما أمر به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه . قال مجاهد : « فأوحى إليهم » أي أشاروا به قال وهب وقتادة . و . . قال مجاهد في رواية له : « فأوحى إليهم » أي كتب لهم في الأرض ، وكذا قال السدي .

يَسْتَجِيبُ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآيَاتُنَا الْحُكْمُ صَبِيًّا ﴿١٣﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَاتِبَتَيْنِ ﴿١٤﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٥﴾ وَوَسَّلْنَا عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٦﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به وهو يحيى عليه السلام ، وأن الله علمه الكتاب وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً فلهدأ نوه بذكره وبما أنعم به عليه وعلى والديه فقال ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجهد وحرص واجتهاد ﴿ وآيتناه الحكم صبيًا ﴾ أي الفهم والعلم والجهد والعزم والاقبال على الخير والاكباب عليه والاجتهاد فيه وهو صغير حدث ، قال عبد الله بن المبارك : قال معمر : قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال : ما للعب خلقنا ، قال : فلهدأ أنزل الله ﴿ وآيتناه الحكم صبيًا ﴾

وقوله ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ يقول : ورحمة من عندنا ؛ وكذا قال عكرمة وقتادة والضحاك وزاد : لا يقدر عليها غيرنا ، وزاد قتادة : رحم الله بها زكريا . وقال مجاهد ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ وتعطفاً من ربه عليه . وقال عكرمة ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ قال : محبة عليه . وقال ابن زيد أما الحنان فالمحبة ، وقال عطاء بن أبي رباح ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ قال : تعطفياً من لدنا ، وقال ابن جرير : أخبرني عمرو بن دينار أنه سمع عكرمة عن ابن عباس أنه قال : لا والله ما أدري ما حنانا .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير عن منصور ، سألت سعيد بن جبير عن قوله ﴿ وحناناً من لدنا ﴾ فقال : سألت عنها ابن عباس فلم يجد فيها شيئاً ، والظاهرة من السياق أن قوله وحناناً معطوف على قوله ﴿ وآيتناه الحكم صبيًا ﴾ أي وآيتناه الحكم وحناناً وزكاة ، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان هو المحبة في شفقة وميل ، كما تقول العرب : حنت الناقة على ولدها وحننت المرأة على زوجها ، ومنه سميت المرأة حنة من الحنية ، وحن الرجل إلى وطنه ، ومنه التعطف والرحمة ، كما قال الشاعر :

تعطف عليّ هداك المليك

فإن لكل مقام مقالا

وفي المسند للإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يبقى رجل في النار ينادي ألف سنة : يا حنان يا منان » وقد يثنى ، ومنهم من يجعل ما ورد في ذلك لغة بذاتها ، كما قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستيق بعضنا حنائيك بعض الشر أهون من بعض

وقوله ﴿ وزكاة ﴾ معطوف على وحناناً ، فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب . وقال قتادة : الزكاة العمل الصالح . وقال الضحاك وابن جرير : العمل الصالح الزكي . وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ وزكاة ﴾ قال : بركة ، ﴿ وكان تقياً ﴾ ذا طهر فلم يهت بذنوب . وقوله ﴿ وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه ، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى ، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بها ، ومجانته عقوقها قولاً وفعلاً ، أمراً ونهياً ؛ ولهذا قال ﴿ ولم يكن جباراً عصياً ﴾ ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الأحوال . وقال سفيان بن عيينة : أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن : يوم يولد فبرئ نفسه خارجاً عما كان فيه ، ويوم يموت فبرئ قوماً لم يكن عابئهم ، ويوم يبعث فبرئ نفسه في محشر عظيم ، قال : فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه ، فقال ﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾ رواه ابن جرير عن أحمد ابن منصور المروزي عن صدقة بن الفضل عنه .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة في قوله ﴿ جباراً عصياً ﴾ قال : كان ابن المسيب يذكر قال : قال رسول الله ﷺ « ما من أحد يلتقى الله يوم القيامة إلا إذا ذنب إلا يحيى بن زكريا » قال قتادة : ما أذنب ولا هم بإمرأة ، مرمل ، وقال محمد بن إسحاق عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب : حدثني ابن العاص أنه سمع النبي ﷺ قال « كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب ، إلا ما كان من يحيى بن زكريا » ابن إسحاق مدلس ، وقد عنعن هذا الحديث ، فالله أعلم . وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد ، أخبرنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هم بخطيئة ، ليس يحيى بن زكريا وما ينبيى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » وهذا أيضاً ضعيف ، لأن علي بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة ، والله أعلم . وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة أن الحسن قال : أن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا ، فقال له عيسى : استغفر لي أنت خير مني ؛ فقال له الآخر : أنت خير مني ؛ فقال له عيسى : أنت خير مني سلمت على نفسي ، وسلم الله عليك ، فعرف والله فضلها .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا ﴿٦٦﴾ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا

فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٦٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿٦٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ

رَبِّكَ لِأَهْبَ لَكَ عَلِمًا زَكِيًّا ﴿٦٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٧٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ

قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَلْيَجْعَلْهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً ، عطف بذكر قصة مريم في إيجاده ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب ، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة ، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا ، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى ، ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه ، وأنه على ما يشاء قادر ، فقال ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام . وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل ، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران ، وأنها نذرت ما محررة ، أي تخدم مسجد بيت المقدس ، وكانوا يتقربون بذلك ﴿ فتقبلها رها بقبول حسن وأنبئها نباتاً حسناً ﴾ ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة ، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبذل والدعوى ، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك ، وعظيمهم الذي يرجعون إليه في دينهم ، ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ فذكر أنه كان يجد عندها ثمر الشتاء في الصيف ، وثمر الصيف في الشتاء ، كما تقدم بيانه في سورة آل عمران ، فلما أراد الله تعالى وله الحكمة والحجة البالغة ، أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام أحد الرسل أوتي

العزم الخمسة العظام ﴿ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ أي اعترلتهم وتنحت عنهم ، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس . وقال السدي لحيض أصابها ، وقيل لغير ذلك .

قال أبو كديبة عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس قال : إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه ، وما صرفهم عنه إلا قول ربك ﴿ فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ قال : خرجت مريم مكاناً شرقياً ، فصلوا قبل مطلع الشمس ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير . وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا إسحاق بن شاهين ، حدثنا خالد بن عبد الله عن داود عن عامر ، عن ابن عباس قال : إن لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة لقول الله تعالى : ﴿ فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة . وقال قتادة ﴿ مكاناً شرقياً ﴾ شاسعاً متنجساً ، وقال محمد بن إسحاق : ذهبت بقلتها لتستقي الماء . وقال نوف البكالي : اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه ، فإله أعلم . وقوله ﴿ فاتخذت من دوحهم حجاباً ﴾ أي استترت منهم وتوارت ، فأرسل الله تعالى إليها جبريل عليه السلام ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ أي على صورة إنسان تام كامل . قال مجاهد والضحاك وقتادة وابن جريج ووهب بن منبه والسدي في قوله ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾ يعني جبرائيل عليه السلام ؛ وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن ، فإنه تعالى قد قال في الآية الأخرى ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال : إن روح عيسى عليه السلام من جملة الأرواح التي أخذ عليها العهد في زمان آدم عليه السلام ، وهو الذي تمثل لها بشراً سوياً ، أي روح عيسى ، فحملت الذي خاطبها ، وحل في فيها ، وهذا في غاية الغرابة والنعكاسة وكأنه إسرائيلي ﴿ قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ أي لما تبدى لها الملك في صورة بشري وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب ، خافته وظنت أنه يريد بها على نفسها ، فقالت ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ أي إن كنت تخاف الله تذكيراً له بالله وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل ، فخوفته أولاً بالله عزوجل .

قال ابن جرير : حدثني أبو كريب ، حدثنا أبو بكر عن عاصم قال : قال أبو وائل وذكر قصة مريم ، فقال : قد علمت أن النبي ذو نية حين قالت ﴿ إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ قال إنما أنا رسول ربك ﴿ أي فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها لست بما تظنين ولكني رسول ربك أي بعثني الله إليك ، ويقال إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقا وعاد إلى هيئته وقال ﴿ إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكياً ﴾ هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهوري القراء ، وقرأ الآخرون ﴿ لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ وكلا القرائتين له وجه حسن ومعنى صحيح ، وكل تستنزم الأخرى ﴿ قالت أن يكون لي غلام ﴾ فتمجبت مريم من هذا وقالت : كيف يكون لي غلام ؟ أي على أي صفة يوجد هذا الغلام مني ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور مني الفجور ، ولهذا قالت ﴿ ولم يمسن بشراً ولم أك بغياً ﴾ والبغي هي الزانية ، ولهذا جاء في الحديث النهي عن مهر البغي ﴿ قال كذلك قال ربك هو علي هين ﴾ أي فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت : إن الله قد قال أنه سيوجد منك غلاماً وإن لم يكن لك بعل ، ولا يوجد منك فاحشة ، فإنه على ما يشاء قادر ، ولهذا قال ﴿ ولنجمه آية للناس ﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم ، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى إلا عيسى ، فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر ، فتمت القصة الرابعة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه .

وقوله ﴿ ورحمة منا ﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله ونبياً من الأنبياء ، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والأخرة ومن المقربين ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين ﴾ أي يدعو إلى عبادة ربه في مهده وكهولته ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم ، حدثنا مروان ، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفي عن مجاهد قال : قالت مريم عليها السلام : كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني ، وإذا كنت مع الناس سبح في بطني وكبر .

وقوله ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ يحتمل أن هذا من كلام جبريل لمريم ، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته ، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النسخ في فرجها ، كما قال تعالى : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ وقال ﴿ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ قال محمد بن إسحاق ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ أي إن الله قد عزم على هذا فليس منه بد ، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره ولم يحك غيره ، والله أعلم .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ، مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا

وَكَسْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال ، أنها استسلمت لقضاء الله تعالى ، فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك وهو جبرائيل عليه السلام عند ذلك نفخ في جيب درعها ، فنزلت النفخة حتى ولجت الفرج فحملت بالولد بإذن الله تعالى ، فلما حملت به ضاقت ذرعاً ، ولم تدر ماذا تقول للناس ؛ فانها تعلم أن الناس لا يصدقونها فيها تخبرهم به ، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا ؛ وذلك أن زكريا عليه السلام كان قد سأل الله الولد فأجيب إلى ذلك ؛ فحملت أمراته ، فدخلت عليها مريم ، فقامت إليها فاعتقتها وقالت : أشعرت يا مريم أني حبل ؟ فقالت لها مريم : وهل علمت أيضاً أني حبل ، وذكرت لها شأنها وما كان من خبرها ، وكانوا بيت إيمان وتصديق ، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت مريم تجهد الذي في بطنها يسجد للذي في بطن مريم ، أي يعظمه ويخضع له ، فإن السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعاً ، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته ، وكما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم عليه السلام ، ولكن حرم في ملتنا هذه تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين قال : قرئ على الحارث بن مسكين وأنا أسمع ؛ أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال : قال مالك رحمه الله : بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام ابنا خالة ، وكان حملها جميعاً معاً ، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم : إني أرى أن ما في بطني يسجد لما في بطنك . قال مالك : أرى ذلك لتفضيل عيسى عليه السلام ، لأن الله جعله يحيى الموق ويبرئ الأكمه والأبرص ، ثم اختلف المفكرون في مدة حمل عيسى عليه السلام ، فالشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر . وقال عكرمة : ثمانية أشهر ، قال : ولهذا لا يعيش ولد الثانية أشهر . وقال ابن جريج : أخبرني المغيرة بن عتبة بن عبدالله الثقفي ، سمع ابن عباس ومثل عن حمل مريم قال : لم يكن إلا أن حملت فوضعت ، وهذا غريب ، وكأنه مأخوذ من ظاهر قوله تعالى : ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب ، لكن تعقيب كل شيء بحسبه ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلِيقَةً فَخَلَقْنَا عَلِيقَةً مِضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمِضْغَةَ عِظَامًا ﴾ فهذه الفاء للتعقيب بحسبها .

وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوماً ؛ وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً ﴾ فالشهور الظاهر ، والله على كل شيء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن . ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل بها ، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس يقال له يوسف النجار ، فلما رأى ثقل بطنها وكبره ، أنكر ذلك من أمرها ، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ، ثم تأمل ما هي فيه ، فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه ، فحمل نفسه على أن عرض لها في القول فقال : يا مريم إني سائلك عن أمر فلا تعجلي علي . قالت : وما هو ؟ قال : هل يكون قط شجر من غير حب ، وهل يكون زرع من غير بذر . وهل يكون ولد من غير أب ؟ فقالت : نعم ، وفهمت ما أشار إليه . أما قولك : هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر ، فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر ؛ وهل يكون ولد من غير أب ؟ فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم ، فصدقها وسلم لها حالها ، ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريية ، انتبذت منهم مكاناً قصياً ، أي قاصياً منهم بعيداً عنهم لئلا تراهم ولا يروها .

قال محمد بن إسحاق : فلما حملت به وملاّت قلتها ورجعت ، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والترحم وتغير اللون ، حتى فطر لسانها فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا ، وشاع الحديث في بني إسرائيل فقالوا : إنما صاحبها يوسف ولم يكن معها في الكنيسة غيره ، وتوارت عن الناس واتخذت من دونهم حججاً ، فلا يراها أحد ولا تراه . وقوله ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أي فاضطرها وأجأها الطلق إلى جذع النخلة في المكان الذي نتحت إليه ، وقد اختلفوا فيه ، فقال السدي : كان شرمي محرماً الذي تصلي فيه من بيت المقدس . وقال وهب بن منبه : ذهبت هاربة ، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطلق . وفي رواية عن وهب : كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس في قرية هناك يقال لها بيت لحم ، قلت : وقد تقدم في أحاديث الاسراء من رواية النسائي عن أنس رضي الله

عنه ، والبيهقي عن شداد بن أوس رضي الله عنه أن ذلك بيت لحم ، فالله أعلم ؛ وهذا هو المشهور الذي تلقاه الناس بعضهم عن بعض ، ولا يشك فيه النصارى أنه بيت لحم ، وقد تلقاه الناس ، وقد ورد به الحديث إن صح . وقوله تعالى إخباراً عنها ﴿قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فإنها عرفت أنها ستبطل وتمتنح بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيها يظنون عاهرة زانية ، فقالت ﴿يا ليتني مت قبل هذا﴾ أي قبل هذا الحال ، ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً ، قاله ابن عباس . وقال السدي : قالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس : يا ليتني مت قبل هذا الكرب الذي أنا فيه والحزن بولادتي المولود من غير بعل ، ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ نسي فترك طلبه كخرق الحيف إذا القيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر ، وكذلك كل شيء نسي وترك فهو نسي . وقال قتادة ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر ولا يدرى من أنا . وقال الربيع بن أنس ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ هو السقط . وقال ابن زيد : لم أكن شيئاً قط ، وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهي عن تمني الموت إلا عند الفتنة عند قوله ﴿توفني مسلماً وأحقني بالصالحين﴾ .

فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي ۚ قَد جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

فَكُلِّي وَأُشْرِي ۚ وَفَرَىٰ عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي ۖ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾

قرأ بعضهم : من تحتها بمعنى الذي تحتها ، وقرأ الآخرون : من تحتها على أنه حرف جر ، واختلف المفسرون في المراد بذلك من هو ؟ فقال العوفي وغيره عن ابن عباس ﴿فناداها من تحتها﴾ جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ؛ وكذا قال سعيد بن جبير والضحاك وعمرو بن ميمون والسدي وقاتدة : أنه الملك جبرائيل عليه الصلاة والسلام ، أي ناداها من أسفل الوادي . وقال مجاهد ﴿فناداها من تحتها﴾ قال : عيسى ابن مريم ، وكذا قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : قال الحسن : هو ابنها ، وهو إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير أنه ابنها ، قال : أولم تسمع الله يقول ﴿فأشارت إليه﴾ واختاره ابن زيد وابن جرير في تفسيره .

وقوله ﴿أن لا تحزني﴾ أي ناداها قائلاً لا تحزني ﴿قد جعل ربك تحتك سريراً﴾ قال سفيان الثوري وشعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب ﴿قد جعل ربك تحتك سريراً﴾ قال : الجدول ؛ وكذا قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : السري النهر ؛ وبه قال عمرو بن ميمون نهر تشرب منه . وقال مجاهد : هو النهر بالسريانية . وقال سعيد بن جبير : السري النهر الصغير بالبطية . وقال الضحاك : هو النهر الصغير بالسريانية . وقال إبراهيم النخعي : هو النهر الصغير . وقال قتادة : هو الجدول بلغة أهل الحجاز ، وقال وهب بن منبه : السري هو ربيع ماء . وقال السدي : هو النهر ؛ واختار هذا القول ابن جرير .

وقد ورد في ذلك حديث ، مرفوع فقال الطبراني : حدثنا أبو شعيب الحراني ، حدثنا يحيى . بن عبدالله البجلي ، حدثنا أيوب بن نبيك ، سمعت عكرمة مولى ابن عباس ، سمعت ابن عمر يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿إن السري الذي قال الله لمريم ﴿قد جعل ربك تحتك سريراً﴾ نهر أخرجه الله لتشرب منه﴾ وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه . وأيوب بن نبيك هذا هو الحبل ، قال فيه أبو حاتم الرازي : ضعيف . وقال أبو زرعة : منكر الحديث . وقال أبو الفتح الأزدي : متروك الحديث . وقال آخرون المراد بالسري عيسى عليه السلام ، وبه قال الحسن والربيع بن أنس ومحمد بن عباد بن جعفر ، وهو إحدى الروايتين عن قتادة ، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم والقول الأول أظهر . ولهذا قال بعده ﴿وهزي إليك بجزع النخلة﴾ أي وخذي إليك بجزع النخلة . قيل : كانت يابسة ، قاله ابن عباس . وقيل : مشرة . قال مجاهد : كانت عجوة . وقال الثوري عن أبي داود نفيح الأعمى : كانت صرفانه ، والظاهر أنها كانت شجرة ، ولكن لم تكن في إبان ثمرها ، قاله وهب بن منبه ، ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال ﴿تساقط عليك رطباً جنياً﴾ فكللي واشربي وقرري عيناً أي طيبي نفساً ؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية الكريمة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا شيبان ، حدثنا مسروق بن سعيد التميمي ، حدثنا عبد

الرحمن بن عمرو الأوزاعي عن عروة بن رويم ، عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله ﷺ «أكرموا عمتكم النخلة ، فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام ، وليس من الشجر شيء يلقح غيرها» وقال رسول الله ﷺ «أطعموا نساءكم الولد الرطب ، فإن لم يكن رطب فتمر ، وليس من الشجر شجرة أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران» هذا حديث منكر جدا ورواه أبو يعلى عن شيبان به . وقرأ بعضهم تساقط بتشديد السين ، وآخرون بتخفيفها . وقرأ أبو نهبك «تسقط عليك رطباً جنيماً» وروى أبو إسحاق عن البراء أنه قرأها «يساقط» أي الجذع ، والكل متقارب . وقوله «فإما ترين من البشر أحداً» أي مهما رأيت من أحد «فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً» المراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك ، لا أن المراد به القول اللفظي لثلاثي «فلن أكلم اليوم إنسياً» قال أنس بن مالك في قوله «إني نذرت للرحمن صوماً» قال : صمتا ، وكذا قال ابن عباس والضحاك ، وفي رواية عن أنس : صوماً وصمتاً ؛ وكذا قال قتادة وغيرهما ؛ والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام ، نص على ذلك السدي وفتادة وعبد الرحمن بن زيد . قال ابن إسحاق عن حارثة قال : كنت عند ابن مسعود ، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ؛ فقال : ما شأنك ؟ قال أصحابه : حلف أن لا يكلم الناس اليوم ، فقال عبدالله بن مسعود : كلم الناس وسلم عليهم ، فان تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج ، يعني بذلك مريم عليها السلام ، ليكون عدواً لها إذا سئلت . ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله . وقال عبد الرحمن بن زيد : لما قال عيسى لمريم «لا تحزني» قالت : وكيف لا أحزن وأنت معي ، لا ذات زوج ولا مملوكة ؟ أي شيء عذري عند الناس ؟ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ، قال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام «فأما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً لنن أكلم اليوم إنسياً» قال هذا كله من كلام عيسى لأمه ، وكذا قال وهب .

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً فَأُولَئِكَ مَرِيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ﴿١٢٧﴾ يَتَّخِذَتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمراً سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿١٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿١٢٩﴾ قَالَ إِنْ عِبَدَ اللَّهُ أَتَيْتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿١٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مَبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿١٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿١٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٣٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك وأن لا تكلم أحداً من البشر ، فانها ستكفي أمرها ويقام بحجتها ، فسلمت لأمر الله عز وجل واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها فأتت به قومها تحمله ، فلما رآوها كذلك أعظموا أمرها واستكروه جداً ، وقالوا : يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً ، أي أمراً عظيماً ، قاله مجاهد وفتادة والسدي وغير واحد . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبدالله بن أبي زياد ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي قال : وخرج قومها في طلبها ، قال : وكانت من أهل بيت نبوة وشرف فلم يحسوا منها شيئاً ، فلقوا راعي بقر فقالوا : رأيت فتاة كذا وكذا نعمتها ؟ قال : لا ولكني رأيت الليلة من بقري ما لم أره منها قط ، قالوا : وما رأيت ؟ قال : رأيتها الليلة تمسجد نحو هذا الوادي .

قال عبد الله بن أبي زياد : وأحفظ عن سيار انه قال : رأيت نوراً ساطعاً فتوجهوا حيث قال لهم ، فاستقبلتهم مريم ، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنتها في حجرها فجاءوا حتى قاموا عليها «وقالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً» أمراً عظيماً «يا أخت هارون» أي يا شبيهة هارون في العبادة «ما كان أبوك أمراً سوء وما كانت أمك بغياً» أي أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة ، فكيف صدر هذا منك ؟ قال علي بن أبي طلحة والسدي : قيل لها «يا أخت هارون» أي أخي موسى ، وكانت من نسله كما يقال للتميمي : يا أخا نعيم ، وللمضري يا أخا مضر ، وقيل : نسبت الى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون ، فكانت تقاس به في الزهادة والعبادة ؛ وحكى ابن جرير عن بعضهم أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم يقال له هارون .

ورواه ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ؛ وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين الهجستاني ، حدثنا ابن أبي مريم ، حدثنا المفضل يعني ابن أبي فضالة ، حدثنا أبو صخر عن القرظي في قول الله عز وجل

﴿ياأخت هارون﴾ قال : هي أخت هارون لأبيه وأمه ، وهي أخت موسى أخي هارون التي قصت أثر موسى ﴿فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ وهذا القول خطأ محض ، فإن الله تعالى قد ذكر في كتابه أنه قفى بعيسى بعد الرسل ، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثاً ، وليس بعده إلا محمد صلوات الله وسلامه عليهما ، ولهذا ثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال «أنا أولى الناس بابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي» ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظي ، لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد ، ولكان قبيل سليمان وداود ، فإن الله قد ذكر أن داود بعد موسى عليها السلام في قوله تعالى : ﴿ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعت لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ وذكر القصة إلى أن قال «وقتل داود جالوت﴾ الآية ؛ والذي جراً القرظي على هذه المقالة ما في التوراة بعد خروج موسى وبني إسرائيل من البحر وإغراق فرعون وقومه ، قال : وقامت مريم بنت عمران أخت موسى وهارون النبيين تضرب بالدف هي والنساء معها يسبحن الله ويشكرن على ما أنعم به على بني إسرائيل ، فاعتقد القرظي أن هذه هي أم عيسى وهذه هفوة وغلظة شديدة ، بل هي باسم هذه ، وقد كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم وصالحهم ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالله بن إدريس ، سمعت أبي يذكره عن سبائك عن علقمة بن وائل عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرايت ما تقرءون ﴿ياأخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم» انفراد باخراجه مسلم والترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن إدريس عن أبيه عن سبائك به ، وقال الترمذي : حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس . وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن عليه عن سعيد بن أبي صدقة عن محمد بن سيرين قال : أنبئت أن كعباً قال : إن قوله ﴿ياأخت هارون﴾ ليس بهارون أخي موسى ، قال : فقالت له عائشة : كذبت . قال : يا أم المؤمنين إن كان النبي ﷺ قاله فهو أعلم وأخبر ، وإلا فاني أجد بينها ستائة سنة ، قال : فسكت ، وفي هذا التاريخ نظر . وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد عن قتادة قوله ﴿ياأخت هارون﴾ الآية ، قال : كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد ، ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به ، وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به ، وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته وليس بهارون أخي موسى ولكنه هارون آخر ، قال : وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمى هارون من بني إسرائيل . وقوله ﴿فأشارت إليه قالوا كيف تكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي أنهم لما استرابوا في أمرها واستنكروا قضيتها وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية ، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامته ، فأحالت الكلام عليه ، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه ، فقالوا متهمكين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم ﴿كيف تكلم من كان في المهد صبياً﴾ قال ميمون بن مهران ﴿فأشارت إليه﴾ قالت : كلموه ، فقالوا : على ما جاءت به من الدهاية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبياً ؛ وقال السدي لما ﴿أشارت إليه﴾ غضبوا وقالوا : لسخرتها بنا حتى تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها ﴿قالوا كيف تكلم من كان في المهد صبياً﴾ أي من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره ، كيف يتكلم ؟ قال : إني عبدالله ، أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبراه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربه .

وقوله ﴿أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة ، قال نوف البكالي : لما قالوا لأمه ما قالوا ، كان يرتضع ثديه ، فترع الثدي من فمه واتكأ على جنبه الأيسر وقال ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ إلى قوله - ما دمت حياً﴾ وقال حماد بن سلمة عن ثابت البناني : رفع أصبعه السبابة فوق منكبه وهو يقول ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ الآية ، وقال عكرمة ﴿أتاني الكتاب﴾ أي قضى أنه يؤتني الكتاب فيها قضى ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن المصفي ، حدثنا يحيى بن سعيد هو العطار عن عبد العزيز بن زياد ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان عيسى ابن مريم قد درم التوراة وأحكمها وهو في بطن أمه ، فذلك قوله ﴿إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ يحيى بن سعيد العطار الحمصي متروك .

وقوله ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ قال مجاهد وعمرو بن قيس والثوري : وجعلني معلماً للخير . وفي رواية عن مجاهد : نفاعاً . وقال ابن جرير : حدثني سليمان بن عبد الجبار ، حدثنا محمد بن يزيد بن خنيس المخزومي ، سمعت وهب بن الورد مولى بني غزوم قال : لقي عالم عالماً هو فوّه في العلم ، فقال له : يرحمك الله ما الذي أعلن من عملي ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد أجمع الفقهاء على قول الله ﴿وجعلني مباركاً أينما كنت﴾ وقيل : ما بركته ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان . وقوله ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ كقولته تعالى لمحمد ﷺ ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ . وقال عبد الرحمن بن القاسم عن

مالك بن أنس في قوله ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ قال : أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت ، ما أبينها لأهل القدر .

وقوله ﴿وَيُرَا بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي وأمرني ببر والدي ، ذكره بعد طاعة ربه ، لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين ، كما قال تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبِّي أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وقال ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دِيكَ إِلِي الْمَصِيرَ﴾ . وقوله ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدي ، فأشقى بذلك . قال سفيان الثوري : الجبار الشقي الذي يقتل على الغضب . وقال بعض السلف : لا تجهد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً ؛ ثم قرأ ﴿وَيُرَا بِيَوْمِ الدِّينِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ قال : ولا تجهد سيء الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً ؛ ثم قرأ ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُجِبُ مِنْ كَانَ مَخْتَلًا فُخُورًا﴾ .

قال قتادة : ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيى الموتى ويرى الأكمة والأبرص في آيات سلطه الله عليهن وأذن له فيهن ، فقالت : طوبى للبطن الذي حملك ، وطوبى للثدي الذي أرضعت به ؛ فقال نبي الله عيسى عليه السلام يحييها : طوبى لمن تلا كتاب الله فاتبع ما فيه ، ولم يكن جباراً شقياً . وقوله ﴿وَالسَّلَامُ عَلِي يَوْمَ وُلِدْتَ وَيَوْمَ أَمُوتَ وَيَوْمَ أُبْعَثَ حَيًّا﴾ إثبات منه لعبوديته الله عز وجل ، وأنه مخلوق من خلق الله يحيى ويموت ويبعث كسائر الخلق ، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد ، صلوات الله وسلامه عليه .

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٢١﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَلْجِزَ مِنْ وَلَدِهِ سِخْتًا ۗ
إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ
بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه : ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿قوله الحق الذي فيه يمترون﴾ أي يختلف المبطلون والمحقون من آمن به وكفر به ، ولهذا قرأ الاكثرون قول الحق برفع قول ، وقرأ عاصم وعبدالله بن عامر قول الحق ؛ وعن ابن مسعود أنه قرأ ذلك عيسى ابن مريم ، قل : الحق والرفع أظهر إعراباً ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين﴾ ، ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سِبْغَانَهُ﴾ أي عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد شيئاً ، فانما يأمر به فيصير كما يشاء ، كما قال ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ .

وقوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربه وربهم وأمرهم بعبادته ، فقال ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم ، أي قويم من اتبعه رشد وهدى ، ومن خالفه ضل وغوى . وقوله ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله ، وأنه عبده ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فصممت طائفة منهم ، وهم جمهور اليهود - عليهم لعائن الله - على أنه ولد زنية ، وقالوا : كلامه هذا سحر . وقالت طائفة أخرى : إنما تكلم الله . وقال آخرون : بل هو ابن الله . وقال آخرون : ثالث ثلاثة . وقال آخرون : بل هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين ، وقد روي نحو هذا عن عمرو بن ميمون وابن جريج وقاتدة وغير واحد من السلف والخلف .

قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة في قوله ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال : اجتمع بنو اسرائيل ، فأخرجوا منهم أربعة نفر ، أخرج كل قوم عالمهم ، فامتروا في عيسى حين رفع ، فقال بعضهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية ؛ فقال الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث : قل أنت فيه قال : هو ابن الله وهم النسطورية ؛ فقال الاثنان : كذبت . ثم قال أحد الاثنان للآخر : قل فيه ؛ فقال : هو ثالث ثلاثة : الله إله ، وهو إله ، وأمه إله ، وهم الاسرائيلية ملوك النصارى عليهم لعائن الله . قال

حديث الأعمش به ، ولفظها قريب من ذلك . وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة : حدثني أسباط بن محمد عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً مثله ، وفي سنن ابن ماجة وغيره من حديث محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة نحوه ، وهو في الصحيحين عن ابن عمر .

رواه ابن جريج قال : قال ابن عباس فذكر من قبله نحوه ، ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول في قصصه : يؤقى بالموت كأنه دابة فيذبح والناس ينظرون ، وقال سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل : حدثنا أبو الزعراء عن عبدالله هو ابن مسعود في قصة ذكرها ، قال : فليس نفس إلا وهي تنظر الى بيت في الجنة وبيت في النار وهو يوم الحسرة ، فيرى أهل النار البيت الذي في الجنة ، ويقال لهم لو علمتم ، فتأخذهم الحسرة ، قال : ويرى أهل الجنة البيت الذي في النار ، فيقال لهم لولا أن الله من عليكم . وقال السدي عن زياد عن زر بن حبيش عن ابن مسعود في قوله ﴿ وأندرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، أتى بالموت في صورة كبش أملح حتى يوقف بين الجنة والنار ، ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا ، فلا يبقى أحد في أهل عليين ولا في أسفل درجة في الجنة إلا نظر إليه ، ثم ينادي مناد : يا أهل النار هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا ، فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم إلا نظر إليه ، ثم يذبح بين الجنة والنار ، ثم ينادى : يا أهل الجنة هو الخلود أيد الأبدين ، ويا أهل النار هو الخلود أيد الأبدين ، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا ، ويشق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وأندرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر ﴾ يقول إذا ذبح الموت ، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿ وأندرهم يوم الحسرة ﴾ من أساء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله ﴿ وأندرهم يوم الحسرة ﴾ قال : يوم القيامة ، وقرأ ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ . وقوله ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف ، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو تعالى وتقدس ، ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً ، بل هو الوارث لجميع خلقه الباقي بعدهم الحاكم فيهم ، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة . قال ابن أبي حاتم : ذكر هذبة بن خالد القيسي ، حدثنا حزم بن أبي حزم القطعي قال : كتب عمر بن عبد العزيز الى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة : أما بعد ، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت ، فجعل مصيرهم إليه ، وقال فيها أنزل في كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه وأشهد ملائكتك على حفظه : إنه يرث الأرض ومن عليها واليه يرجعون .

وَأَذَكَّرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكُمْ كَانَ صِدِّيقَانِيًّا ﴿١١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿١٢﴾

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَ فِي مِمْكَ الْعِلْمُ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿١٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ

لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿١٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿١٥﴾

يقول تعالى لنيه محمد ﷺ : واذكر في الكتاب إبراهيم ، واتل على قومك هؤلاء الذين يعبدون الأصنام ، واذكر لهم ما كان من خير إبراهيم خليل الرحمن . الذين هم من ذريته ويدعون أنهم على ملته ، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه ، كيف نهاه عن عبادة الأصنام ، فقال ﴿ ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ أي لا يفعل ولا يدفع عنك ضرراً ﴿ ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ﴾ يقول : وإن كنت من صلبك وتراني أصغر منك لأني ولدك ، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ، ولا اطلعت عليه ولا جاءك ﴿ فاتبعني أهدك صراطاً سويّاً ﴾ أي طريقاً مستقيماً موصلاً الى نيل المطلوب ، والتجاة من المهروب ﴿ ياأبت لا تعبد الشيطان ﴾ أي لا تطلع في عبادتك هذه الأصنام ، فإنه هو الداعي الى ذلك والراضي به ، كما قال تعالى : ﴿ ألم أهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ وقال ﴿ إن يدعون من دونه إلا إنثاء وإن يدعون إلا شيطانا مريداً .

وقوله ﴿ إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ أي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه ، فطرده وأبعده ، فلا تتبعه نصر مثله ﴿ ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ﴾ أي على شركك وعصيانك لما أمرك به ﴿ فتكون للشيطان ولياً ﴾ يعني فلا يكون لك مولى ولا ناصرأ ولا مغيثاً إلا إبليس ، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء ، بل إتباعك له موجب لإحاطة

العذاب بك ، كما قال تعالى : ﴿ تَأْتَهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَرِزِينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ ، فَهُمْ وَلِيَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ﴾ .

قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَا إِبْرَاهِيمَ لَيْنَ لَمْ تَنْتَه لَأَرْحَمَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿١٦٦﴾ قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَفِيًّا ﴿١٦٧﴾ وَأَعْتَزَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿١٦٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبي إبراهيم لولده إبراهيم فيما دعاه إليه أنه قال ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم؟﴾ يعني إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها ، فانت عن سبها وشتمها وعيها ، فانك إن لم تنته عن ذلك اقتضت منك وشمتك وسببتك ، وهو قوله ﴿لأرحمك﴾ قاله ابن عباس والسدي وابن جريج الضحاك وغيرهم ، وقوله ﴿واهجرني ملياً﴾ قال مجاهد وعكرمة ومعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق : يعني دهراً . وقال الحسن البصري : زماناً طويلاً . وقال السدي ﴿واهجرني ملياً﴾ قال : أبداً . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿واهجرني ملياً﴾ قال : سويماً سالماً قبل أن تصيبك مني عقوبة ؛ وكذا قال الضحاك وقتادة وعطية الجدي مالك وغيرهم ، واختاره ابن جرير ، فعندها قال إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ وقال تعالى : ﴿وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام لا نستقي الجاهلين﴾ ومعنى قول إبراهيم لأبيه ﴿سلام عليك﴾ يعني أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى وذلك لحرمة الأبوة ﴿سأستغفر لك ربي﴾ ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿إنه كان بي حفيماً﴾ قال ابن عباس وغيره : لطيماً ، أي في أن هداني لعبادته والاختصاص له .

وقال قتادة ومجاهد وغيرهما : ﴿إنه كان بي حفيماً﴾ قال عوده الأجابة . وقال السدي : الحفي الذي يتم بأمره ، وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة وبعد أن هاجر إلى الشام ، وبنى المسجد الحرام ، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في قوله ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهلبيهم من المشركين في ابتداء الإسلام ، وذلك اقتداءً بإبراهيم الخليل في ذلك حتى أنزل الله تعالى : ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله - الى قوله - إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء﴾ الآية ، يعني إلا في هذا القول ، فلا تتأسوا به ، ثم بين تعالى أن إبراهيم أطلع عن ذلك ورجع عنه ، فقال تعالى : ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين - الى قوله - وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو تبرأ منه ان إبراهيم لأواه حليم﴾ . وقوله ﴿وأعزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوربي﴾ أي وأجتنبكم وأتبرأ منكم ومن ألهتكم التي تعبدون من دون الله ﴿وأدعوربي﴾ . أي وأعبد ربي وحده لا شريك له ﴿عسى أن لا أكون بدعاه ربي شقياً﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة ، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ .

فَلَمَّا أَعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَيَّأَ لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكَلَّا جَعَلْنَا دَاوُدَ نَبِيًّا ﴿١٦٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا

لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿١٧٠﴾

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خير منهم ، ووهب له إسحاق ويعقوب يعني ابنه وابن إسحاق ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ويعقوب نافلة﴾ وقال ﴿ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب ، وهو نص القرآن في سورة البقرة أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ﴿ما تعبدون من بعدي؟﴾ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ ولهذا إنما ذكر ههنا ويعقوب ، أي جعلنا له نسلاً وعقباً أنبياء أقر الله بهم عينه في حياته ، ولهذا قال ﴿وكلا جعلنا نبياً﴾ فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبىء في حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ولذكر ولده يوسف ، فإنه نبى أيضاً كما قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خير الناس ، فقال : ﴿يوسف نبى الله ابن يعقوب نبى الله ابن إسحاق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله﴾ ، وفي اللفظ الآخر ﴿إن الكريم

ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم . وقوله ﴿ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني الثناء الحسن ، وكذا قال السدي ومالك بن أنس ، وقال ابن جرير : إنما قال علياً لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه ، عطف بذكر الكليم ، فقال ﴿واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام من الإخلاص في العبادة . قال الثوري عن عبد العزيز بن رفيع ، عن أبي لبابة قال : قال الحواريون : يا روح الله أخبرنا عن المخلص لله ؟ قال : الذي يعمل لله لا يجب أن يحمد الناس ، وقرأ الآخرون بفتحها بمعنى أنه كان مصطفى ، كما قال تعالى : ﴿إني اصطفيتك على الناس﴾ ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فانه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة ، وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدَبْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمُ

رَحْمَةً أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

وقوله ﴿ونادينا من جانب الطور﴾ أي الجانب ﴿الأيمن﴾ من موسى حين ذهب يتفني من تلك النار جذوة فرأها تلوح ، فقصدتها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه غريبة عند شاطئ الوادي ، فكلمه الله تعالى وناداه وقربه فناجاه . روى ابن جرير : حدثنا ابن يسار ، حدثنا يحيى هو الفطان ، حدثنا سفيان عن عطاء بن يسار ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ﴿وقربناه نجياً﴾ قال : أدنى حتى سمع صريف القلم ، وهكذا قال مجاهد وأبو العالية وغيرهم : يعنون صريف القلم بكتابة التوراة . وقال السدي ﴿وقربناه نجياً﴾ قال : أدخل في السماء فكلم ، وعن مجاهد نحوه . وقال عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة ﴿وقربناه نجياً﴾ قال : نجا بصدقه . وروى ابن أبي حاتم : حدثنا عبد الجبار بن عاصم ، حدثنا محمد بن سلمة الحزاني عن أبي واصل ، عن شهر بن حوشب ، عن عمرو بن معد يكرب قال : لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء ، قال : يا موسى إذا خلقت لك قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة تعين على الخير ، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً ، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً . وقوله ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه ، فجعلناه نبياً ، كما قال في الآية الأخرى ﴿وأخيه هارون هو أنصح مني لساناً فأرسله ممي ردها يصدقني إني أخاف أن يكذبون﴾ وقال ﴿قد أوتيت سؤالك يا موسى﴾ وقال ﴿فأرسل إلى هارون ولم علي ذنب فأخاف أن يقتلون﴾ ولهذا قال بعض السلف : ما شفع أحد في أحد شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبياً ، قال الله تعالى : ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن عليه عن داود عن عكرمة قال : قال ابن عباس قوله ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ قال : كان هارون أكبر من موسى ، ولكن أراد وهب نبوته له ، وقد ذكره ابن أبي حاتم معلقاً عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقي به .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ

مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

هذا ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه كان صادق الوعد . قال ابن جرير : لم يعد ربه عدة إلا أنجزها ، يعني ما التزم عبادة قط بنذر إلا قام بها ووفأها حقها . وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث أن سهل بن عقيل حدثه أن إسماعيل النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه فيه ، فجاء ونسي الرجل ، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد ، فقال : ما برحت من ههنا ؟ قال : لا . قال : إني نسيت : قال : لم أكن أبرح حتى تأتيني ، فلذلك ﴿كان صادق الوعد﴾ وقال سفيان الثوري : بلغني أنه أقام في ذلك المكان ينتظره حولاً حتى جاءه وقال ابن شاذب : بلغني أنه اتخذ ذلك الموضع مسكناً . وقد روى أبو داود في سننه ، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطي في كتابه مكارم الأخلاق ، من طريق إبراهيم بن

طهانه عن عبدالله بن ميسرة عن عبد الكريم يعني ابن عبدالله بن شقيق ، عن أبيه عن عبدالله بن أبي الحمساء ، قال بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث ، فقيت له على بقية ، فوعدته أن آتية بها في مكانه ذلك ، قال : فنسيت يومي والغد ، فأتيت في اليوم الثالث وهو في مكانه ذلك ؛ فقال لي «يا فتى لقد شقت علي ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظره» لفظ الخرائطي وساق آثاراً حسنة في ذلك . ورواه ابن منده أبو عبدالله في كتاب معرفة الصحابة بإسناده عن إبراهيم بن طهانه ، عن بديل بن ميسرة عن عبد الكريم به .

وقال بعضهم : إنما قيل له «صادق الوعد» لأنه قال لأبيه «مستجدي إن شاء الله من الصابرين» فصدق في ذلك ، فصدق الوعد من الصفات الحميدة كما أن خلفه من الصفات الذميمة ، قال الله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون» كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» وقال رسول الله ﷺ «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان» ولما كانت هذه صفات المنافقين ، كان التلبس بصددها من صفات المؤمنين ، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد ، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً لا يعد أحداً شيئاً إلا وفي له به ، وقد أثنى على أبي العاصم بن الربيع زوج ابنته زينب ، فقال «حدثني فصدقني ، ووعدني فوفى لي» ولما توفي النبي ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتني أنجز له ، فجاء جابر بن عبدالله فقال إن رسول الله ﷺ قال «لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا» يعني ملء كفيه ، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً فغرف بيديه من المال ، ثم أمره بعده فإذا هو خمسمائة درهم فأعطاه مثلها معها .

وقوله «وكان رسولاً نبياً» في هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق ، لأنه إنما وصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة . وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل» وذكر تمام الحديث ، فدل على صحة ما قلناه . وقوله «وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً» هذا أيضاً من الثناء الجميل والصفة الحميدة ، والخلة السديدة ، حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل ، أمراً بها لأهله ، كما قال تعالى : لرسوله «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها» الآية ؛ وقال «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» أي مروهم بالمعروف وانهموم عن المنكر ولا تدعوهم هملاً ، فتأكلهم النار يوم القيامة . وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «رحم الله رجلاً قام من الليل فصل وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح في وجهها الماء . رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها ، فإن أبي نضحت في وجهه الماء» أخرجه أبو داود وابن ماجه . وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال «إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته فصلها ركعتين ، كتبنا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه واللفظ له .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِتَمَّ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٦٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٦٧﴾

ذكر إدريس عليه السلام بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً ، وأن الله رفعه مكاناً علياً ؛ وقد تقدم في الصحيح أن رسول الله ﷺ مر به في ليلة الإسراء وهو في السماء الرابعة . وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً فقال : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني جرير بن حازم عن سليمان الأعمش عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال : سألت ابن عباس كعباً وأنا حاضر فقال له : ما قول الله عز وجل لإدريس «ورفعناه مكاناً علياً» فقال كعب : أما إدريس ، فإن الله أوحى إليه أني أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم ، فأحب أن يزداد عملاً ، فاتاه خليل له من الملائكة فقال له : إن الله أوحى إلي كذا وكذا ، فكلم لي ملك الموت فليؤخرني حتى أزداد عملاً ؛ فحمله بين جناحيه حتى صعد به إلى السماء ، فلما كان في السماء الرابعة تلقاهم ملك الموت متحدراً ، فكلم ملك الموت في الذي كلمه فيه إدريس ، فقال : وأين إدريس ؟ فقال : هوذا على ظهري . قال ملك الموت : العجب بعثت ، وقيل لي أقبض روح إدريس في السماء الرابعة ، فجعلت أقول : كيف أقبض روحه في السماء الرابعة وهو في الأرض ؟ فقبض روحه هناك ؛ فذلك قول الله «ورفعناه مكاناً علياً» هذا من أخبار كعب الأخبار الإسرائيلية ، وفي بعضه نكارة ، والله أعلم .

وقد رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن ابن عباس أنه سأل كعباً فذكر نحوه ما تقدم ، غير أنه قال لذلك الملك : هل لك أن تسأله ، يعني ملك الموت ، كم بقي من أجل لكى أزداد من العمل ، وذكر باقيه وفيه : أنه لما سأله عما بقي من

أجله ، قال : لا أدري حتى أنظر ، فنظر ثم قال : إنك تسألني عن رجل ما بقي من عمره إلا طرفة عين ، فنظر الملك تحت جناحه فإذا هو قد قبض عليه السلام وهو لا يشعر به ؛ ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس أن إدريس كان خياطاً ، فكان لا يفرز أبرة إلا قال : سبحان الله ، فكان يسي حين يسي وليس في الأرض أحد أفضل عملاً منه ، وذكر بقيته كالذي قبله أو نحوه .

وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد في قوله ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال إدريس : رفع ولم يمت كما رفع عيسى وقال سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال : الساء الرابعة . وقال العوفي عن ابن عباس ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال : رفع الى السماء السادسة فأت بها ؛ وهكذا قال الضحاك بن مزاحم ؛ وقال الحسن وغيره في قوله ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ قال : الجنة .

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَهَ يَلْ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا
إِذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِم آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًا ﴿١٠٨﴾

يقول تعالى : هؤلاء النبيون - وليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط بل جنس الأنبياء عليهم السلام استطراد من ذكر الأشخاص الى الجنس - ﴿الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم﴾ الآية ؛ قال السدي وابن جرير رحمه الله . فالذي عنى به من ذرية آدم إدريس ، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم والذي عنى به من ذرية إسحاق ويعقوب وإسماعيل ، والذي عنى به من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم ؛ قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح في السفينة وهو إدريس ، فانه جد نوح ﴿قلت﴾ هذا هو الأظهر أن إدريس في عمود نسب نوح عليها السلام ، وقد قيل إنه من أنبياء بني إسرائيل أخذاً من حديث الإبراء ، حيث قال في سلامه على النبي ﷺ : مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح ، ولم يقل والولد الصالح ، كما قال آدم وإبراهيم عليهما السلام .

وروى ابن أبي حاتم : حدثنا يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني ابن لبيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن عمر أن إدريس أقدم من نوح ، فبعثه الله الى قومه فأمرهم أن يقولوا لا إله إلا الله ، ويعملوا ما شاءوا ، فأبوا فأهلكهم الله عز وجل ، وبما يؤيد ان المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين ومن آياتهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتناهم وهديتناهم الى صراط مستقيم - الى قوله - أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾ . وفي صحيح البخاري عن مجاهد أنه سأل ابن عباس أي ﴿ص﴾ سجدة ؟ فقال : نعم ، ثم تلا هذه الآية ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ فبيحك عن أمر أن يقتدى بهم ، قال : وهو منهم ، يعني داود . وقال الله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ أي إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه ، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكي جمع باك ، فلهاذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعاً لمنوالهم . قال سفيان الثوري عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر قال : قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم ، فسجد وقال : هذا السجود فأين البكي ؟ يريد البكاء ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وسقط من رواه ذكر أبي معمر فيها رأيت ، فانه أعلم .

﴿خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ﴿١٠٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿١١٠﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام ، ومن اتبعهم من القانتين بحدود الله وأوامره ، المؤدين فرائض الله التاركين لزواجه ، ذكر أنه ﴿خلف من بعدهم خلف﴾ أي قرون آخر ﴿أضاعوا الصلاة﴾ وإذا أضعوا فهم لما سواها من الواجبات أضيع ، لأنها عباد الدين وقوامه وبخير أعمال العباد ، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غيا ، أي خساراً يوم القيامة ، وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ههنا فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية ، قال محمد بن كعب القرظي وابن زيد بن أسلم والسدي ، واختاره ابن جرير ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد ، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة للحديث «بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة» . والحديث الآخر «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر» وليس هذا محل بسط هذه المسألة .

وقال الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن غيميرة في قوله ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة﴾ قال : إما أضعوا المواقيت ولو كان تركاً كان كفراً . وقال وكيع عن المسعودي عن القاسم بن عبد الرحمن والحسن بن سعيد عن ابن مسعود أنه قيل له : إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ و ﴿على صلاتهم دائمون﴾ و ﴿على صلاتهم يحافظون﴾ فقال ابن مسعود : على موقيتها . قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك ، قال ذلك الكفر ، قال مسروق : لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين ، وفي إفراطهن الهلكة ، وإفراطهن إضاعتهم عن وقتهن ، وقال الأوزاعي عن إبراهيم بن يزيد : إن عمر بن العزيز قرأ ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون عقاب﴾ ثم قال : لم تكن إضاعتهم تركها ولكن أضعوا الوقت ، وقال ابن أبي نجیح عن مجاهد ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ قال : عند قيام الساعة وذهب صالحى أمة محمد ﷺ يزو بعضهم على بعض في الأزقة ، وكذا روى ابن جريج عن مجاهد مثله ، وروى جابر الجعفي عن مجاهد وعكرمة وعطاء بن أبي رباح أنهم من هذه الأمة ، يعنون في آخر الزمان .

وقال ابن جرير : حدثني الحارث ، حدثنا الحسن الأشيب ، حدثنا شريك عن إبراهيم ابن مهاجر عن مجاهد ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ قال : هم في هذه الأمة يتراكبون تراكب الأنعام والحمر في الطرق ، لا يخافون الله في السماء ، ولا يستحيون من الناس في الأرض وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ ، حدثنا حيوة ، حدثنا بشير بن أبي عمرو الخولاني أن الوليد بن قيس حدثه أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول ويكون خلف بعد ستين سنة أضعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومتفق وفاجر وقال بشير : قلت للوليد : ما هؤلاء الثلاثة ؟ قال : المؤمن مؤمن به ، والمتفق كافر به . والفاجر يأكل به ؛ وهكذا رواه أحمد عن أبي عبد الرحمن المقرئ .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثني أبي ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أنبأنا عيسى بن يونس ، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن وهب عن مالك عن أبي الرجال أن عائشة كانت ترسل بالشيء صدقة لأهل الصفة ، وتقول : لاتعطوا منه بربريا ، ولا بربرية ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول وهم الخلف الذين قال الله تعالى فيهم : فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة هذا الحديث غريب . وقال أيضاً : حدثني أبي ، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك ، حدثنا الوليد بن جرير عن شيخ من أهل المدينة أنه سمع محمد بن كعب القرظي يقول في قول الله ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ الآية ، قال : هم أهل الغرب يملكون وهم شر من ملك .

وقال كعب الأحبار : والله إني لأجد صفة المنافقين في كتاب الله عز وجل : شرابين للقهوات ، تراكيب للصلوات ، لغائبين بالكعبات ، ورفادين عن العتبات ، مفرطين في الغدوات ، تراكيب للجتماعات ، قال (ثم تلا هذه الآية ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا﴾ وقال الحسن البصري : عطلوا المساجد ولزموا الضيعات . وقال أبو الأشهب العطاردي : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني مجرّبة ، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدي إذا أثر شهوة من شهواته أن أحرمه من طاعتي .

وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا أبو زيد التميمي عن أبي قبيل أنه سمع عتبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ «إني أخاف على أمي اثنتين : القرآن ، واللبن ، أما اللبن فيتبعون الزيف ويتبعون الشهوات ويتركون الصلاة ، أما القرآن فيتعلمه المنافقون فيجادلون به المؤمنين . ورواه عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة : حدثنا أبو قبيل عن

عقبة به ، مرفوعاً بنحوه ، تفرد به .

وقوله ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي خسراً ، وقال قتادة : شرأ ، وقال سفيان الثوري وشعبة ومحمد بن إسحاق عن أبي إسحاق السبيعي عن أبي عبيدة ، عن عبد الله بن مسعود ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال : واد في جهنم بعيد القعر ، خبيث الطعم . وقال الأعمش عن زياد عن أبي عياض في قوله ﴿فسوف يلقون غياً﴾ قال : واد في جهنم من قيح ودم . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثني عباس بن أبي طالب ، حدثنا محمد بن زياد ، حدثنا شريقي بن قظامي عن لقمان بن عامر الخزاعي قال : جثت أبا أمامة صدي بن عجلان الباهلي ، فقلت : حدثنا حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، فدعا بطعام ، ثم قال قال رسول الله ﷺ ولو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها خمسين خريفاً ، ثم تنتهي الى غي وأثام ، قال : قلت ما غي وأثام ؟ قال : قال «بئران في أسفل جهنم يسيل فيها صديد أهل النار» وهما اللذان ذكرهما الله في كتابه ﴿أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ وقوله في الفرقان ﴿ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً﴾ هذا حديث غريب ورفعه منكر . وقوله ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات ، فإن الله يقبل توبته ويحسن عقابه ويجعله من ورثة جنة النعيم ؛ ولهذا قال ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾ وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها ، وفي الحديث الآخر «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التي عملوها شيئاً ، ولا قبولها بما عملوه قبلها فينقص لهم مما عملوه بعدها ، لأن ذلك ذهب هدرأ وترك نسيأ ، وذهب مجانأ من كرم الكريم وحلم الحليم ، وهذا الاستثناء ههنا كقولته في سورة الفرقان ﴿والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق - إلى قوله - وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُمْ كَانُوا وَعَدُّهُمْ مَأْتِيًا ﴿١٦﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً

وَعَشِيًّا ﴿١٧﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي جنات عدن ، أي إقامة التي وعد الرحمن عباده بظهر الغيب ، أي هي من الغيب الذي يؤمنون به وما رأوه ، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم . وقوله ﴿إنه كان وعده مأتيًا﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله ، كقولته ﴿كان وعده مفعولاً﴾ أي كأننا لا محالة ، وقوله ههنا ﴿مأتيًا﴾ أي العباد صائرون إليه وسيأتونه ، ومنهم من قال ﴿مأتيًا﴾ بمعنى آتياً ، لأن كل ما أتاك فقد آتيت ، كما تقول العرب : أتت علي خمسون سنة ، وأتيت علي خمسين سنة ، كلاهما بمعنى واحد .

وقوله ﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له كما قد يوجد في الدنيا . وقوله ﴿إلا سلاماً﴾ استثناء منقطع كقولته ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأتياً إلا قِيلاً سلاماً سلاماً﴾ وقوله ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ أي في مثل وقت البكرات ووقت العشيات لا أن هناك ليلاً ونهاراً ؛ ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيتها بأصواء وأنوار ، كما قال الامام أحمد حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ وأول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ، ولا يتمخطون فيها ، ولا يتغوطون ، آتيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة وبجواهرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان ، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا أخرجاه في الصحيحين من حديث معمر به .

وقال الامام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي عن ابن إسحاق ، حدثنا الحارث بن فضيل الأنصاري عن محمود بن لبيد الأنصاري ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ والشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا تفرد به احمد من هذا الوجه . وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ قال : مقادير الليل والنهار .

وقال ابن جرير : حدثنا علي بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم قال : سألت زهير بن محمد عن قول الله تعالى : ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا﴾ قال : ليس في الجنة ليل ، هم في نور أبداً ولهم مقدار الليل والنهار ، يعرفون مقدار الليل

بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب ، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب ، وهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم عن خليلد عن الحسن البصري ، وذكر أبواب الجنة فقال : أبواب يرى ظاهرها من باطنها فتكلم وتكلم فتفهم ، انتحى انتحلي فتفعل ، وقال قتادة في قوله ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فيها ساعتان بكرة وعشي ، ليس ثم ليل ولا نهار ، وإنما هو ضوء ونور ، وقال مجاهد : ليس بكرة ولا عشي ، ولكن يؤتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا . وقال الحسن وقاتة وغيرهما : كانت العرب الأنعم فيهم من يتغذى ويتعشى ، فنزل القرآن على ما في أنفسهم من النعيم فقال تعالى : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ وقال ابن مهدي عن حماد بن زيد عن هشام عن الحسن ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال : البكور يرد على العشي ، والعشي يرد على البكور ، ليس فيها ليل . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا سليمان بن منصور بن عمار ، حدثني أبي حدثني محمد بن زياد قاضي أهل شباط عن عبد الله ابن حدير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال ﴿وما من غداة من غدوات الجنة وكل الجنة غدوات ، إلا أنه يزف إلى ولي الله ، فيها زوجة من الحور العين أدانها من التي خلقت من الزعفران﴾ قال أبو محمد : هذا حديث غريب منكر .

وقوله ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا بهذه الصفات العظيمة ، هي التي نورثها عبادنا المتقين ، وهم الطيبون لله عز وجل في السراء والضراء ، والكاظمون الغيظ ، والعافون عن الناس ، وكما قال تعالى في أول سورة المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى أن قال ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُمْ مَائِنٌ أَيْدِيًا وَمَا خَلَفْنَا وَمَائِنٌ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا فَاَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا يعلى ووكيع قالا : حدثنا عمر بن زر عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبرائيل ﴿وما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟﴾ قال : فنزلت ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ إلى آخر الآية .

وقال مجاهد لبث جبرائيل عن محمد ﷺ اثني عشرة ليلة ، ويقولون أقل ، فلما جاءه قال ﴿يا جبرائيل لقد رثت علي حتى ظن المشركون كل ظن﴾ فنزلت ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ الآية . قال : وهذه الآية كالتي في الضحى ؛ وكذلك قال الضحاك بن مزاحم وقاتة والسدي وغير واحد إنها نزلت في احتباس جبرائيل . وقال الحكم بن أبان عن عكرمة قال : أبطأ جبرائيل النزول على النبي ﷺ أربعين يوماً ، ثم نزل ، فقال له النبي ﷺ ﴿وما نزلت حتى اشتقت إليك﴾ فقال له جبريل : بل أنا كنت إليك أشوق ولكني مأمور ، فوحى الله إلى جبرائيل أن قل له ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ الآية ، رواه ابن أبي حاتم رحمه الله وهو غريب .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن مجاهد قال : أبطأت الرسل على النبي ﷺ ، ثم أتاه جبريل فقال له ﴿وما حبسك يا جبريل؟﴾ فقال جبريل : وكيف نأتكم وأنتم لا تقصون أظفاركم ، ولا تنفون براجمكم ، ولا تأخذون شواربكم ، ولا تستاكون . ثم قرأ ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ إلى آخر الآية . وقد قال الطبراني : حدثنا أبو عامر النهوي ، حدثنا محمد بن إبراهيم الصوري ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقي ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، أخبرني ثعلبة بن مسلم عن أبي كعب مولى ابن عباس ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ أن جبرائيل أبطأ عليه فذكر له ذلك ، فقال : وكيف وأنتم لا تستنون ، ولا تقلمون أظفاركم ، ولا تقصون شواربكم ، ولا تنفون براجمكم؟ وهكذا رواه الإمام أحمد عن أبي البيان عن إسماعيل بن عياش عن ابن عباس بنحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سيار ، حدثنا جعفر بن سليمان ، حدثنا المغيرة بن حبيب عن مالك بن دينار ؛ حدثني شيخ من أهل المدينة عن أم سلمة قالت : قال لي رسول الله ﷺ وأصلحي لنا المجلس فإنه ينزل ملك إلى الأرض لم ينزل إليها قطه وقوله ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ قيل : المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا ، وما خلفنا أمر الآخرة ، ﴿وما بين ذلك﴾ ما بين النفتين ؛ هذا قول أبي العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقاتة في رواية عنها ، والسدي والربيع بن أنس ، وقيل ﴿ما بين أيدينا﴾ ما يستقبل من الآخرة ﴿وما خلفنا﴾ أي ما مضى من الدنيا ﴿وما بين ذلك﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة ،

ويروى نحوه عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وقتادة وابن جريج والثوري ، واختاره ابن جرير أيضاً ، والله أعلم .

وقوله ﴿وما كان ربك نسياً﴾ قال مجاهد والسدي : معناه ما نسيتك ربك ، وقد تقدم عنه ان هذه الآية كقولهم ﴿والضحى والليل إذا سجي ما ودعك ربك وما قلى﴾ . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقي ، حدثنا محمد بن عثمان يعني ابا الجماهر ، حدثنا إسحاق بن عياش ، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة عن أبيه عن أبي الدرداء يرفعه قال ﴿ما أحل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ثم تلا هذه الآية ﴿وما كان ربك نسياً﴾ وقوله ﴿رب السموات والأرض وما بينهما﴾ أي خالق ذلك ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿فاعبدوه واصطبروا لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً ، وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم . وقال عكرمة عن ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه .

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذْ مَا مِمَّتْ لَسُوفَ أَخْرَجَ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ

وَلَرَبِّكَ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ

شِيْعَةٍ أَهْمٌ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

يخبر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب إعادته بعد موته ، كما قال تعالى : ﴿وان تعجب فعجب قولهم اذا كنا تراباً انا لفي خلق جديد﴾ وقال ﴿او لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين﴾ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾ وقال ههنا ﴿ويقول الانسان انا اذا مات لسوف اخرج حياً﴾ أو لا يذكر الانسان انا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴿يستدل تعالى بالبداءة على الاعادة ، يعني أنه تعالى قد خلق الانسان ولم يك شيئاً ، أفلا يعيده وقد صار شيئاً ، كما قال تعالى : ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ وفي الصحيح ويقول الله تعالى : كذبي ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني ، وأذاني ابن آدم ولم يكن له ان يؤذيني ، اما تكذبه اياي فقله لن يعيدني كما بداني ، وليس أول الخلق بأهون علي من آخره ، وأما أذاه اياي فقله إن لي ولداً وانا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وقوله ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين﴾ أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة أنه لا بد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً﴾ قال العوفي عن ابن عباس : يعني قعوداً كقولهم ﴿وترى كل أمة جاثية﴾ وقال السدي في قوله جثياً : يعني قياماً ، وروي عن مرة عن مسعود مثله . وقوله ﴿ثم لننزعن من كل شيعة﴾ يعني من كل أمة ، قال مجاهد ﴿أهم أشد على الرحمن عتياً﴾ قال الثوري عن علي ابن الأقرع عن أبي الأحوص عن ابن مسعود قال : يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أناهم جميعاً ، ثم بدأ بالأكابر جرماً ، وهو قوله ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أهم أشد على الرحمن عتياً﴾ .

وقال قتادة ﴿ثم لننزعن من كل شيعة أهم أشد على الرحمن عتياً﴾ قال : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر ، وكذا قال ابن جريج وغير واحد من السلف ، وهذا كقولهم تعالى : ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أوراهاهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار - الى قوله - بما كنتم تكسبون﴾ وقوله ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر ، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد ان يصلوا بنا ر جهنم ويحذل فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب ، كما قال في الآية المتقدمة ﴿قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون﴾ .

وَأَن مِّنكُمْ إِلَّا وَاوَدُّهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَوَدَّرْنَا الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

قال الإمام احمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا خالد بن سليمان عن كثير بن زياد البرساني عن أبي سمية قال : اختلفنا في الورود فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ؛ وقال بعضهم : يدخلوها جميعاً ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ، فلبقت

جابر بن عبد الله قتلته له : إنا اختلفنا في الورد ، فقال : يردونها جميعاً ، وقال سليمان بن مرة : يدخلونها جميعاً ، وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه ، وقال : صمتان لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول إلا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها ، فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت النار على إبراهيم حتى إن للنار ضجيجاً من يردهم ، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً غريباً ولم يخرجوه .

وقال الحين بن عرفة : حدثنا مروان بن معاوية عن بكار بن أبي مروان عن خالد بن معدان قال : قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة : ألم يعدنا ربنا الورد على النار ؟ قال : قد مررتم عليها وهي خامدة ، وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم قال : كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته ، فبكت فبكت امرأته ، قال : ما يبكيك ؟ قالت رأيتك تبكي فبكت ، قال : إني ذكرت قول الله عز وجل ﴿وان منكم إلا واردها﴾ فلا أدري أنجو منها أم لا - وفي رواية ، وكان مريضاً .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن يمان عن مالك بن مغول عن أبي إسحاق كان أبو ميسرة إذا آوى إلى فراشه قال : يا ليت أمتي لم تلدني ، ثم يبكي ؛ فقيل له : ما يبكيك يا أبو ميسرة ؟ فقال : أخبرنا أنا واردها ولم نخبر أنا صادرها ، وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصري قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك أنك وارد النار ؟ قال : نعم ، قال : فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال : لا ، قال : فقيم الضحك ؟ قال : فما زمني ضاحكاً حتى لحق بالله . وقال عبد الرزاق أيضاً : أخبرنا ابن عيينة عن عمرو ، أخبرني من سمع ابن عباس يخاصم نافع بن الأزرق فقال ابن عباس : الورد الدخول ؛ فقال نافع : لا ، فقرأ ابن عباس ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ وردوا أم لا ، وقال ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ أوردها أم لا ، أما أنا وانت فسندخلها ، فانظر هل نخرج منها أم لا ؟ وما أرى الله يخرجك منها بتكذيبك ، فضحك نافع .

وروى ابن جرير عن عطاء قال : قال أبو راشد الحروري وهو نافع بن الأزرق ﴿لا يسمعون حسيها﴾ فقال ابن عباس : وبلك ، أجتون أنت ؟ ابن قوله ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ ﴿وان منكم إلا واردها﴾ والله إن كان دعاء من مضى : اللهم اخرجني من النار سالماً ، وادخلي الجنة غانماً . وقال جرير : حدثني محمد بن عبيد المحاربي ، حدثنا اسباط عن عبد الملك عن عبيد الله عن مجاهد قال : كنت عند ابن عباس فأتاه رجل يقال له أبو راشد وهو نافع بن الأزرق ، فقال له : يا ابن عباس إرايت قول الله ﴿وان منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ ؟ قال : أما أنا وانت يا أبا راشد فستردها ، فانظر هل نصدر عنها أم لا ؟ .

وقال أبو داود الطيالسي : قال شعبة : أخبرني عبد الله بن السائب عن سمع ابن عباس يقرؤها ﴿وان منهم إلا واردها﴾ يعني الكفار ، وهكذا روى عمرو بن الوليد البستي أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك ﴿وان منهم إلا واردها﴾ قال وهم الظلمة كذلك كنا نقرؤها ، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وقال العمري عن ابن عباس : قوله ﴿وان منكم إلا واردها﴾ يعني البر والفاجر ، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ الآية ، ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ فسمى الورد على النار دخولاً وليس بصادر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن عن إسرائيل عن السدي ، عن مرة عن عبد الله هو ابن مسعود ﴿وان منكم إلا واردها﴾ قال رسول الله ﷺ «يرد الناس كلهم ثم يصدرون عنها بأعماهم» ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن عبيد الله عن إسرائيل عن السدي به . ورواه من طريق شعبة عن السدي عن مرة عن ابن مسعود مرفوعاً ، هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً . وقد رواه اسباط عن السدي عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال : يرد الناس جميعاً الصراط ، وورودهم قيامهم حول النار ، ثم يصدرون عن الصراط بأعماهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل حتى إن آخرهم مرا رجل نوره على موضع إبهامي قدميه ، يمر فيتكفأ به الصراط ، والصراط دحض مزلة عليه حسك كحسك القناد ، حافته ملائكة معهم كلاليب من نار يحتفظون بها الناس . وذكر تمام الحديث رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا خالد بن أسلم ، حدثنا النضر ، حدثنا إسرائيل ، أخبرنا أبو إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قوله ﴿وان منكم إلا واردها﴾ قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف ، قتمر الطبقة الأولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم . ثم يرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم ؛ وهذا شواهد في الصحيحين وغيرهما من رواية أنس وأبي سعيد وأبي هريرة وجابر وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم . وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علي عن الجريري عن أبي السليل عن غنيم بن قيس قال : ذكروا ورود النار ، فقال كعب :

تمسك النار الناس كأنها متن إهالة حتى يستوي عليها أقدام الخلائق : برهم وفاجرهم ، ثم يناديها مناد : أن أمسكي أصحابك ودعي أصحابي ، قال فتخسف بكل ولي لها ، هي أعلم بهم من الرجل بولده ، ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم . قال كعب : ما بين منكبي الخازن من خزنتها مسيرة سنة ، مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين ، يدفع به الدفع فيصرع به في النار سبعائة ألف .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر ، عن أم مبشر عن حفصة قالت : قال رسول الله ﷺ «إني لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرًا والحديبية» قالت : فقلت أليس الله يقول ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قالت : فسمعت يقول ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ . وقال أحمد أيضاً : حدثنا ابن إدريس ، حدثنا الأعمش عن أبي سفيان عن جابر ، عن أم مبشر امرأة زيد بن حارثة قالت : كان رسول الله ﷺ في بيت حفصة فقال «لا يدخل النار أحد شهد بدرًا والحديبية» قالت حفصة : أليس الله يقول ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ «ثم ننجي الذين اتقوا» الآية ؛ وفي الصحيحين من حديث الزهري عن سعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم» .

وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرني الزهري عن ابن المسيب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم» يعني الورود ، وقال أبو داود الطيالسي حدثنا زعمة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فتسمه النار إلا تحلة القسم» قال الزهري كأنه يريد هذه الآية ﴿وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً﴾ . وقال ابن جرير حدثني عمران بن بكار الكلاعي حدثنا أبو المغيرة حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن نعيم حدثنا إسماعيل بن عبيد الله عن أبي صالح عن أبي هريرة قال خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وعك وأنا معه ثم قال «أن الله تعالى يقول هي ناري أسلطانها على عبدي المؤمن لتكون حظه من النار في الآخرة غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه» .

وحدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو البيان عن عثمان بن الأسود عن مجاهد قال : الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ . وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لبيعة ، حدثنا زيان بن فائد عن سهل بن معاذ عن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال «من قرأ قل هو الله أحد حتى يجتمها عشر مرات ، بين الله له قصرًا في الجنة» فقال عمر : إذا نستكثر يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ «الله أكثر وأطيب» وقال رسول الله ﷺ «من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقًا إن شاء الله ، ومن حرس من وراء المسلمين في سبيل الله متطوعًا لا بأجر سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم» . قال تعالى : ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ وإن الذكر في سبيل الله يضاعف فوق النفقة بسبعائة ضعف . وفي رواية بسبعائة ألف ضعف .

وروى أبو داود عن أبي الطاهر عن ابن وهب وعن يحيى بن أيوب ، كلاهما عن زيان عن سهل عن أبيه عن رسول الله ﷺ «إن الصلاة على الصيام والذكر يضاعف على النفقة في سبيل الله بسبعائة ضعف» . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قوله ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال : هو المر عليها . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ قال : ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها وورود المشركين أن يدخلوها ، وقال النبي ﷺ «الزوالون والزالات يومئذ كثير وقد أحاط بالجسر يومئذ سباطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم» وقال السدي عن مرة عن ابن مسعود في قوله ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ قال : قسمًا واجبًا . وقال مجاهد : حتماً ، قال قضاء ؛ وكذا قال ابن جريج . وقوله ﴿ثم ننجي الذين اتقوا﴾ أي إذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم ، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط وسرعهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفون في أصحاب الكبار من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم وهي مواضع السجود ؛ وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان ، فيخرجون أولًا من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان ، ثم الذي يليه ، ثم الذي يليه ، ثم الذي يليه ، حتى يخرجون من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ، ثم يخرج الله من النار من قال يومًا من الدهر : لا إله إلا الله ولم يعمل خيرا قط ، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ .

وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ سَآءَ الْيَوْمِ بَيَّنَّتْ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَمْ نَكْفُرُ بِاللَّيْثِ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٧﴾ وَكَرَّ أَهْلُ كُنَا

قَلْبَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَأَوْرِيَاءَ ﴿٧٦﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ أي أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن ندياً وهو مجتمع الرجال للحديث أي ناديتهم أعمراً وأكثر وارداً وطارقاً يعنون فكيف تكون ونحن بهذه المثابة على باطل وأولئك الذين هم محتفون مستترون في دار الأرقم ابن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ وقال قوم نوح ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ وقال تعالى ﴿وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ ولهذا قال تعالى راداً على شبهتهم ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم ﴿هم أحسن أثاثاً ورثياً﴾ أي كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وامتنعة ومناظر وأشكالاً قال الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس ﴿خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ قال المقام المنزل والندي المجلس والأثاث المتاع والرثي المنظر، وقال العوفي عن ابن عباس المقام المسكن والندي المجلس والنعمة والبهجة التي كانوا فيها وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم وقص شأنهم في القرآن ﴿كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم﴾ فالمقام المسكن والنعيم، والندي المجلس والمجمع الذي كانوا يجتمعون فيه، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ والعرب تسمى المجلس النادي، وقال قتادة لما رأوا أصحاب محمد ﷺ في عيشتهم خشونة وفيهم قشافة فعرض أهل الشرك ما تسمون ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ وكذا قال مجاهد والضحاك ومنهم من قال في الأثاث هو المال ومنهم من قال الثياب ومنهم من قال المتاع والرثي المنظر كما قاله ابن عباس ومجاهد وغير واحد، وقال الحسن البصري يعني الصور وكذا قال مالك ﴿أثاثاً ورثياً﴾ أكثر أموالاً وأحسن صوراً والكل متقارب صحيح .

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَأْوِعَدُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّمَا السَّاعَةُ فَسِيَعَلْمُونَ ﴿٧٦﴾ مَن هُوَ

شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾

يقول تعالى : ﴿قل﴾ يا محمد هؤلاء المشركين بربههم المدعين أنهم على الحق وانكم على الباطل ﴿من كان في الضلالة﴾ أي منا ومنكم ﴿فليمدد له الرحمن مدا﴾ أي فأمهله الرحمن فيها هو فيه حتى يلقي ربه وينقضي أجله ﴿إما العذاب﴾ يصيبه ﴿وإما الساعة﴾ بغتة تأتيه ﴿فسيعلمون﴾ حينئذ ﴿من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندي . قال مجاهد في قوله ﴿فليمدد له الرحمن مدا﴾ فليدعه الله في طغيانه ، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير رحمه الله وهذه مباحلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه ، كما ذكر تعالى مباحلة اليهود في قوله ﴿يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي ادعوا بالموت على الباطل منا أو منكم إن كنتم تدعون أنكم على الحق ، فإنه لا يضركم الدعاء ، فنكلوا عن ذلك ؛ وقد تقدم تقدير ذلك في سورة البقرة مبسوطاً ، والله الحمد ؛ وكما ذكر تعالى المباحلة مع النصاري في سورة آل عمران حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله ، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى ، وأنه مخلوق كآدم ، قال تعالى بعد ذلك ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ فنكلوا أيضاً عن ذلك .

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَيْتُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

لما ذكر تعالى إمداد من هو في الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه ، أخبر بزيادة المهتدين هدى ، كما قال تعالى : ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً﴾ والابتن . وقوله ﴿والبياتيات الصالحات﴾ قد تقدم تفسيرها والكلام عليها وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة الكهف ﴿خير عند ربك ثواباً﴾ أي جزاء ﴿وخير

مرداً ﴿ أي عاقبة ومرداً على صاحبها . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر بن راشد عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه ، ثم قال دان قول لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله ، تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح ، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يمال بينك وبينهن ، هن الباقيات الصالحات ، وهن من كنوز الجنة ، قال أبو سلمة : فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال : لاهللن الله ، ولأكبرن الله ، ولأسبحن الله ، حتى إذا رأي الجاهل حسب أبي مجنون ، وهذا ظاهره أنه مرسل ، ولكن قد يكون من رواية أبي سلمة عن أبي الدرداء ، والله أعلم ؛ وهكذا وقع في سنن ابن ماجه من حديث أبي معاوية عن عمر بن راشد عن يحيى عن أبي سلمة عن أبي الدرداء ، فذكر نحوه .

أَفْرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأَوْتَيْنَكَ مَا لَمْ يُولَدْ ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَكَتَ مَبِيقُولٍ وَتَمَدَّلَ مِنْ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَتَرْتُمُهُ مَا يَفْقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش عن مسلم عن مسروق عن خباب بن الارت قال : كنت رجلاً قيناً وكان لي على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه ، فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد : فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث . قال : فإني إذا مت ثم بعثت جثتي ولي ثم مال وولد فأعطيتك ؛ فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً - إلى قوله - ويأتينا فرداً﴾ أخرجه صاحبنا الصحيح وغيرهما من غير وجه عن الأعمش به وفي لفظ البخاري : كنت قيناً بمكة فعملت للعاص بن وائل سيفاً ، فجئت أتقاضاه ، فذكر الحديث ، وقال ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال : موثقاً .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا الثوري عن الأعمش عن أبي الضحى ، عن مسروق قال : قال خباب بن الارت : كنت قيناً بمكة ، فكنت اعمل للعاص بن وائل ، فاجتمعت لي عليه دراهم فجئت لأتقاضاه ، فقال لي : لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإذا بعثت كان لي مال وولد ، قال : فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا﴾ الآيات . وقال العوفي عن ابن عباس : إن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمي بدين ، فأتوه يتقاضونه ، فقال : ألستم تزعمون أن في الجنة ذهباً وفضة وحريراً ومن كل الثمرات ؟ قالوا : بلى . قال : فإن موعدكم الآخرة ، فوالله لأوتين مالا وولداً ، ولأوتين مثل كتابكم الذي جثتم به ، فضرب الله مثله في القرآن ، فقال ﴿أفرأيت الذي كفر بآياتنا - إلى قوله - ويأتينا فرداً﴾ وهكذا قال مجاهد وقادة وغيرهم : انها نزلت في العاص بن وائل . وقوله ﴿لأوتين مالا وولداً﴾ قرأ بعضهم بفتح الواو من ولدا ، وقرأ آخرون بضمها ، وهو بمعناه ، قال رؤبة :

الحمد لله العزيز فرداً لم يتخذ من ولد شيء ولدا
وقال الحارث بن حلزة :

ولقد رأيت معاشراً قد ثمروا مالا وولدا

وقال الشاعر :

فليت فلانا كان في بطن أمه وليت فلانا كان ولد حمار

وقيل : ان الولد بالضم جمع ، والولد بالفتح مفرد ، وهي لغة قيس ، والله أعلم . وقوله ﴿أطلع الغيب﴾ إنكار على هذا القائل ﴿لأوتين مالا وولداً﴾ يعني يوم القيامة ، أي أعلم ماله في الآخرة حتى تألى وحلف على ذلك ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك ، وقد تقدم عند البخاري أنه الموتى . وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال : لا إله إلا الله فيرجو بها . وقال محمد بن كعب القرظي ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، ثم قرأ ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ .

وقوله ﴿كَلَّا﴾ هي حروف ردع لما قبلها ، وتأکید لما بعدها ؛ ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أي من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يتمناه وكفره بالله العظيم ، ﴿وَنَعِدُكَ مِنَ الْعَذَابِ مَذْمُومًا﴾ أي في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا ، ﴿وَنُورِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤقن في الدار الآخرة مالا وولداً زيادة على الذي له في الدنيا ، بل في الآخرة يسلب من الذي كان له في الدنيا ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي من المال والولد . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، ﴿وَنُورِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال : نرثه .

قال مجاهد ﴿وَنُورِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ ماله وولده ، وذلك الذي قال العاصم بن وائل . وقال عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة ﴿وَنُورِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال : ماعنده ، وهو قوله ﴿لَا أُوتِينُ مَالًا وَوَلَدًا﴾ . وفي حرف ابن مسعود : ونرثه ما عنده وقال قتادة ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ لا مال له ولا ولد . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَنُورِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال : ما جمع من الدنيا وما عمل فيها ؛ قال ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ قال : فرداً من ذلك لا يتبعه قليل ولا كثير .

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ

عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّهُمْ عِذًّا ﴿٨٤﴾

يغير تعالى عن الكفار المشركين بربهم أنهم اتخذوا من دونه آهة لتكون تلك الآهة ﴿عِزًّا﴾ يعترفون بها ويستصرونها ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا ولا يكون ما طمعوا فقال ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعبَادَتِهِمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دَعْوَتِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿وقرأ أبو نهبك﴾ كل سيكفرون بعبادتهم . وقال السدي ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعبَادَتِهِمْ﴾ أي بعبادة الأوثان .

وقوله ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي بخلاف ما رجوا منهم . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال : أعوانا . قال مجاهد : عوناً عليهم تخاصمهم وتكذبهم . وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ، قال : قرناء . وقال قتادة : قرناء في النار يلعن بعضهم بعضاً ، ويكفر بعضهم ببعض . وقال السدي ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال : الخصماء الأشداء في الخصومة . وقال الضحاك ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال : أعداء . وقال ابن زيد : الضد البلاء ، وقال عكرمة : الضد الحسرة .

وقوله ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : تغريم إغواء ؛ وقال العوفي عنه : تحرضهم على محمد وأصحابه . وقال مجاهد : تشليهم إشلاء وقال قتادة : ترعجهم إزعاجاً إلى معاصي الله ، وقال سفيان الثوري : تغريم إغراء وتستعجلهم استعجالاً . وقال السدي : تطعيمهم طغياناً . وقال عبد الرحمن بن زيد : هذا كقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَيَهْوَى قَرِينَ﴾ وقوله ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُّهُمْ عِذًّا﴾ ان لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿إِنَّمَا نَعِدُّهُمْ عِذًّا﴾ أي إِنَّمَا نُؤَخِّرُهُمْ لِأَجْلِ مَعْدُودٍ مضبوط ، وهم صاترون لا محالة الى عذاب الله ونكاله . وقال ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الآية ، ﴿فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوِيدًا﴾ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾ ﴿فَتَمْتَعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ ﴿قُلْ تَتَمَتَّعُوا فَإِن مَصِركُمْ إِلَى النَّارِ﴾ وقال السدي : إِنَّمَا نَعِدُّهُمْ عِذًّا : السنين والشهور والأيام والساعات . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِنَّمَا نَعِدُّهُمْ عِذًّا﴾ قال : نعد أنفسهم في الدنيا .

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ

الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

يغير تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم فيها أخبروهم ، وأطاعوهم فيها أمرهم به ، وانتهوا عما عنه زجروهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه ، والوفد هم القادمون ركبانا ، ومنه الوفود

وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة . وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه ، وأما المجرمون المكذبون للرسول المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عفا إلى النار ﴿ورداء﴾ عطاشاً ، قاله عطاء وابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة وغير واحد ، وههنا يقال ﴿أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن خالد عن عمرو بن قيس الملائي عن ابن مرزوق ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال : يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رأها وأطيبها ريحاً ، فيقول : من أنت ؟ فيقول أما تعرفني ؟ فيقول : لا ، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك ؛ فيقول : أنا عمك الصالح ، هكذا كنت في الدنيا حسن العمل طيبه ، فطالما ركبتك في الدنيا فهلم اركبني فبركبه ، فذلك قوله ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال : ركبانا .

وقال ابن جرير : حدثني ابن المني ، حدثنا ابن مهدي عن سعيد عن إسماعيل عن رجل عن أبي هريرة ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال : على الإبل . وقال ابن جرير : على النجائب . وقال الثوري : على الإبل النوق . وقال قتادة ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال : إلى الجنة . وقال عبد الله بن الإمام أحمد في مسند أبيه : حدثنا سويد بن سعيد ؛ أخبرنا علي بن مسهر عن عبد الرحمن بن إسحاق ، حدثنا النعمان بن سعيد قال : كنا جلوساً عند علي رضي الله عنه ، فقرأ هذا الآية ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ قال : لا والله ما على أرجلهم يحشرون ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها ، عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة ؛ وهكذا رواه ابن حاتم وابن جرير من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدني به . وزاد عليها : رحائل من ذهب وأزمتها الزبرجد والباقي مثله .

وروى ابن أبي حاتم ههنا حديثاً غريباً جداً مرفوعاً عن علي ، فقال : حدثنا أبي ، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل المدني ، حدثنا مسلمة بن جعفر البجلي ، سمعت أبا معاذ البصري قال : إن علياً كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ ، فقرأ هذه الآية ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ فقال : ما أظن الوفد إلا الركب يارسول الله ؟ فقال النبي ﷺ والذي نفسي بيده ، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون أو يؤتون بنوق بيض لها أجنحة وعليها رحال الذهب شرك نعالهم نور يتلألأ كل خطوة منها مد البصر ، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان ، فيشربون من إحدهما فتغسل ما في بطونهم من دنس ، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أشبارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً ، وتجري عليهم نضرة النعيم فينتهون أو فيأتون باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب فيضربون بالحلقة على الصفحة ، فيسمع لها طنين ياعلى ، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل ، فتبعث قيمها فيفتح له ، فإذا رآه خر له - قال مسلمة أراه قال ساجداً - فيقول : ارفع رأسك فإنما أنا قيمك وكلت بأمرك ، فيتبعه ، ويقفر أثره فتستخف الحوراء العجولة ، فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتقه ، ثم تقول : أنت حبي وأنا حيك ، وأنا الخالدة التي لا أموت ، وأنا الناعمة التي لا أبأس ، وأنا الراضية التي لا أسخط ، وأنا المقيمة التي لا أظعن ، فيدخل بيتاً من رأسه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، بناؤه على جندل الزؤلؤ طرائق : أحمر وأصفر وأخضر ، ليس منها طريقة تشاكل صاحبته . وفي البيت سبعون سريراً ، على كل سرير سبعون حشية ، على كل حشية سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ ساقها من وراء الحلل ، يقضي جماعها في مقدار ليلة من لياليكم هذه ، الأنهار من تحتهم تطرد أنهار من ماء غير آسن ، قال : صاف لا كدر فيه ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ولم يخرج من ضرع الماشية وأنهار من خمر لذة للشاربين لم يعصرها الرجال بأقدامهم ، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل فيستحلي الثمار ، فإن شاء أكل قائماً وإن شاء قاعداً وإن شاء متكئاً ؛ ثم تلا ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾ فيشتهي الطعام فيأتيه طير أبيض ، وربما قال أخضر ، فترفع أجنحتها فيأكل من جنوبها ؛ أي الألوان شاء ، ثم تطير فتذهب فيدخل الملك فيقول : سلام عليكم ﴿تلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون﴾ ولو أن شجرة من شعر الحوراء وقعت لأهل الأرض لأضاءت الشمس معها سواد في نوره هكذا وقع في هذه الرواية مرفوعاً ، وقد رويناه في المقدمات من كلام علي رضي الله عنه بنحوه ، وهو أشبه بالصحة ، والله أعلم .

وقوله ﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداء﴾ أي عطاشاً ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ . وقوله ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ هذا استثناء منقطع بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله والقيام بحقها . قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ قال : العهد شهادة أن لا إله إلا الله ، وبيراً إلى الله من الخول والقوة ، ولا يرجو إلا الله عز وجل .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عثمان بن خالد الواسطي حدثنا محمد بن الحسن الواسطي عن المسعودي ، عن عون بن عبد الله عن أبي فاتحة ، عن الأسود بن يزيد قال : قرأ عبد الله يعني ابن مسعود هذه الآية ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ ، ثم قال : اتخذوا عند الله عهداً ، فإن الله يوم القيامة يقول من كان له عند الله عهد فليقم ، قالوا : يا أبا عبد الرحمن فعلمنا . قال : قولوا : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، فاني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أن لا تكلمني إلى عمل يقربني من الشر ويباعدني من الخير ، وإني لا أتق إلا برحمتك ، فاجعل لي عندك عهداً تؤدبه إلى يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد . قال المسعودي : فحدثني زكريا عن القاسم بن عبد الرحمن ، أخبرنا ابن مسعود وكان يلحق بهن خائفاً مستجيراً مستغفراً راهباً راغباً إليك ، ثم رواه من وجه آخر عن المسعودي بنحوه .

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتْفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَيَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُنْتُمْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع في مقام الإنكار هل من زعم أن له ولداً ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ، فقال ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم﴾ أي في قولكم هذا ﴿شيئاً إذا﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومالك : أي عظيماً . ويقال إذا بكسر الهمزة وفتحها ، ومع مدها أيضاً ثلاث لغات أشهرها الأولى وقوله ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾ أن دعوا للرحمن ولداً أي يكاد ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم إعظاماً للرب وإجلالاً ، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيدِه ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا شريك له ولا نظير له ، ولا لده ، ولا صاحبة له ، ولا كفه له ، بل هو الأحد الصمد .

في كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

قال ابن جرير : حدثني علي ، حدثنا عبد الله ، حدثني معاوية عن علي ، عن ابن عباس في قوله ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾ أن دعوا للرحمن ولداً قال : إن الشرك فرعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت أن تزول منه لعظمة الله ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان الشرك ، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين ، وقال رسول الله ﷺ «لقد قرأنا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة» ، فقالوا : يارسول الله فمن قالها في صحته ؟ قال «تلك أوجب وأوجب» . ثم قال «والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن ، فوضعن في كفة الميزان ، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن» ؛ هكذا رواه ابن جرير ، ويشهد له حديث البطاقة ، والله أعلم .

وقال الضحاك ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾ أي يتشققن فرقا من عظمة الله . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وتنشق الأرض ، أي غضباً له عز وجل ، وتخر الجبال هداً ، قال ابن عباس : هدماً ، وقال سعيد بن جبير : هداً ينكسر بعضها على بعض متتابعات . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن سويد المقرري ، حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا مسعر عن عون بن عبد الله قال : إن الجبل لبناي الجبل باسمه يافلان ، هل مر بك اليوم ذكر الله عز وجل ؟ فيقول : نعم ويستبشر ، قال عون : هي للخير أسمع أفيسمع الزور والباطل إذا قيل ولا يسمع غيره ؛ ثم قرأ ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾ أن دعوا للرحمن ولداً .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا هودة ، حدثنا عوف عن غالب بن عجرود ؛ حدثني رجل من أهل الشام في مسجد منى قال : بلغني أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر لم يكن في الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال - كان لهم فيها منفعة ، ولم تزل الأرض والشجر بذلك حتى تكلم فجرة بني آدم الكلمة العظيمة قولهم : اتخذ الرحمن ولداً ، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض وشاك الشجر . وقال كعب الأحبار : غضبت الملائكة واستعرت جهنم حين قالوا ما قالوا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ولا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أن يشرك به ويعجل له ولد ، وهو يعافهم ويدفع عنهم ويرزقهم ، أخرجه في الصحيحين . وفي لفظ وأنتهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم . وقوله ﴿وما ينفي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾ أي يصلح له ولا يليق به لجلاله وعظمته ، لأنه لا كفاء له من خلقه ، لأن جميع الخلائق عبيد له ، ولهذا قال ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً﴾ لقد أحصاهم وعددهم عبداً ، أي قد علم عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة ، ذكرهم وأنتاهم ، صغيرهم وكبيرهم ، ﴿وكلهم آتية يوم القيامة فرداً﴾ أي لا ناصر له ولا مجبر إلا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، ولا يظلم أحداً .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٦١﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزُقُهُ بِإِسْرَافِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٦٢﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ آخِرٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٦٣﴾

يخبر تعالى أنه يفرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لتتابعها الشريعة المحمدية - يفرس لهم في قلوب عباده الصالحين عجة ومودة ، وهذا أمر لا بد منه ولا يحيد عنه ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه . قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا أبو عوانة ، حدثنا سهيل عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال ﴿إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل ، إني أحب فلاناً فأحبه قال فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض . ورواه مسلم من حديث سهيل ، ورواه أحمد والبخاري من حديث ابن جريج عن موسى بن عقبة ، عن نافع مولى ابن عمر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ نحوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر ، حدثنا ميمون أبو محمد المرائي ، حدثنا محمد بن عباد المخزومي عن ثوبان رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال ﴿إن العبد ليلمس مرضاة الله عز وجل ، فلا يزال كذلك فيقول الله عز وجل لجبريل : إن فلاناً عبدي يلمس أن يرصيني ، ألا وإن رحمتي عليه ، فيقول جبريل : رحمة الله على فلان ، ويقولها حملة العرش ، ويقولها من حولهم حتى يقولها أهل السموات السبع ، ثم يهبط إلى الأرض غريب ، ولم يخرجوه من هذا الوجه . وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود بن عامر ، حدثنا شريك عن محمد بن سعد الواسطي عن أبي ظبية ، عن أبي إمامة قال : قال رسول الله ﷺ ﴿إن المقة من الله - قال - شريك : هي المحبة - والصيت في السماء ، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل عليه السلام : إني أحب فلاناً ، فينادي جبريل : إن ربكم يق - يعني يحب - فلاناً فأحبه - أرى شريكاً قد قال : فتزل له المحبة في الأرض - وإذا أبغض عبداً قال لجبريل : إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فينادي جبريل : إن ربكم يبغض فلاناً فأبغضوه - أرى شريكاً قال - : فيجري له البغض في الأرض ، غريب ، ولم يخرجوه .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو داود الحفري ، حدثنا عبد العزيز - يعني ابن محمد - وهو الدراوردي عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال ﴿إذا أحب الله عبداً نادى جبريل : إني قد أحببت فلاناً فأحبه ، فينادي في السماء ، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض ، فذلك قول الله عز وجل ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا﴾ ، رواه مسلم والترمذي ، كلاهما عن عبد الله عن قتيبة ، عن الدراوردي به . وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿سيجعل لهم الرحمن ودا﴾ قال : حباً ؛ وقال مجاهد عنه : سيجعل لهم الرحمن ودا ، قال : محبة في الناس في الدنيا ؛ وقال سعيد بن جبير عنه ، يحبهم ويحبهم ، يعني إلى خلقه المؤمنين ، كما قال مجاهد أيضاً والضحاك وغيرهم . وقال العوفي عن ابن عباس أيضاً : الود من المسلمين في الدنيا والرزق الحسن واللسان الصادق . وقال قتادة ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا﴾ أي والله في قلوب أهل الإيمان ؛ وذكر لنا أن هرم بن حيان كان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم وقال قتادة : وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه يقول : ما من عبد يعمل خيراً أو شراً إلا كساه الله عز وجل رداء عمله .

وقال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن الربيع بن صبيح عن الحسن البصري رحمه الله قال : قال رجل : والله لأعبدن الله عبادة أذكرها ، فكان لا يرى في حين صلاة إلا قائماً يصلي ، وكان أول داخل الى المسجد وآخر خارج ، فكان لا يعظم ، فمكث بذلك سبعة أشهر ، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا : انظروا الى هذا المرأئي ، فأقبل على نفسه فقال : لا أراي أذكر إلا بشر ، لأجعلن عملي كله لله عز وجل ، فلم يزد على أن قلب نيته . ولم يزد على العمل الذي كان يعمل ، فكان يمر بعد بالقوم فيقولون : رحم الله فلاناً الآن ، وتلا الحسن ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ وقد روى ابن جرير أن هذه الآية نزلت في هجرة عبد الرحمن بن عوف ، وهو خطأ ، فإن هذه السورة بكاملها مكية لم ينزل منها شيء بعد الهجرة ، ولم يصح سند ذلك ، والله أعلم .

وقوله ﴿فإنما يسرناه﴾ يعني القرآن ﴿بلسانك﴾ أي يا محمد وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ﴿لتبشر به المتقين﴾ أي المستجيبين لله ، المصدقين لرسوله ؛ ﴿وتنذر به قوماً لداً﴾ عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿قوماً لداً﴾ لا يستقيمون وقال الثوري عن اسماعيل وهو السدي عن أبي صالح ﴿وتنذر به قوماً لداً﴾ عوجاً عن الحق ، وقال الضحاك : الألد الخصم . وقال القرظي : الألد الكذاب . وقال الحسن البصري ﴿قوماً لداً﴾ صماً ؛ وقال غيره : صم آذان القلوب . وقال قتادة : قوماً لداً يعني قريشاً وقال العوفي عن ابن عباس ﴿قوماً لداً﴾ فجاراً ؛ وكذا روى ليث ابن أبي سليم عن مجاهد .

وقال ابن زيد : الألد الظلوم ، وقرأ قوله تعالى : ﴿وهو ألد الخصم﴾ . وقوله ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً﴾ أي هل ترى منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً . قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك وابن زيد : يعني صوتاً ، وقال الحسن وقتادة : هل ترى عيناً أو تسمع صوتاً ؛ والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي . قال الشاعر :

فتوجست ركز الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس مقامها

آخر تفسير سورة مريم والله الحمد والمئة ويتلوه إن شاء الله تفسير سورة طه والله الحمد .



روى إمام الاثمة محمد بن إسحاق بن خزيمة في كتاب التوحيد عن زيادة بن أيوب عن إبراهيم بن المنذر الخزامي : حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسبار عن عمر بن حفص بن ذكوان عن مولى الحرقه - يعني عبد الرحمن بن يعقوب - عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألف عام ، فلما سمعت الملائكة قالوا : طوى لامة ينزل عليهم هذا ، وطوى لأجواف تحمل هذا ، وطوى لالسن تتكلم بهذاه هذا حديث غريب وفيه نكارة ، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تكلم فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿١﴾ إِلَّا نَذِيرَةً لِّمَنْ تَخْشَى ﴿٢﴾ تَبَارَكَ الَّذِي مَخْلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٣﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْمَرْشِ أَسْتَوَى ﴿٤﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٥﴾ وَإِنْ يُجْهَرُ بِالْقَوْلِ ﴿٦﴾ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَالْخَفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾